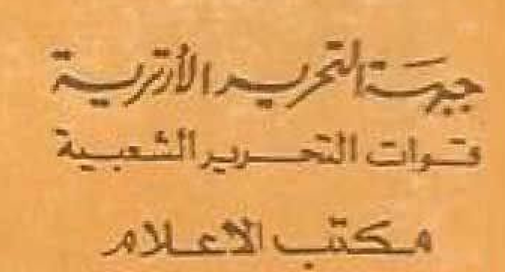




دراسة علمية

علاقة السودان بأثيوبيا عبر التاريخ

بقلم : عثمان صالح سبي

السودان وأثيوبيا بلدان متجاوران منذ الأزل بينهما النيل الذي يعتمد السودانيون على مياهه في حياتهم وأرزاقهم • والجوار يفرض دوام الاتصال والاحتكاك لمختلف المقاصد سواء أكانت تجارية أو اقتصادية أو سياسية أو حربية وفق مـا تقتضيه مصالح كل منهما سلبا أو ايجابا •

ولأسباب جغرافية وسياسيـة وتاريخية ودينية وثقافية فان العلاقة بين السودان وأثيوبيا اتسمت في معظم فترات التاريخ بالعراك الساخن أحيانا وبهدنة قلقة أحيانا أخرى • وليس هذا النوع من العلاقة سمة خاصة بالبلدين فكثير من الشعوب والبلدان المتجاورة في مختلف أنحاء الدنيا وعلى مر العصور اتسمت علائقها بالحروب والغزوات •

ولأهمية السودان بالنسبة لأرتريا بحكم الجوار، رأينا من المفيد أن نفرد دراسة تاريخية ومعاصرة

للعلاقة بين أثيوبيا والسودان ، مستهدفين استنتاج الدروس والعبر بالنسبة لكل الأطراف المعنية في هذه المنطقة بما فيها أثيوبيا ، لعلها تستفيد من هذه الدروس في وضع أسس لسياساتها تقوم على مبدأ التعايش وحسن الجوار في أقصى حد ممكن ·

وليس هناك تعبير أكثر دقة وصدقا لوصف حالة شعوب هذه المنطقة الممتدة من البحر الابيض حتى حدود كينيا والتي هي نتاج التزاوجات التاريخية بين العناصر السامية والحاميـة والزنجية بنسب متفاوتة كذلك الذي وصف حالتها به ألان مورهيد في كتابه (النيل الأزرق) ، صفحة ١٥ حيث يقول :

(ان قرية بومبودي يفترض أن تشكل الحدود بين النيل داخل أثيوبيا والنيل داخل السودان · وهذه النقطة هي موقع احتكاك بين عرب الصحراء وأثيوبيو الجبال ، بين الاسلام والمسيحية ، فيما توجد مجموعة سوداء وثنية كعازل بين الفئتين · ولا أحد يستطيع أن يعبر هذه الحدود بأمان · وعندما يعبر العربي لغزو أثيوبيا فان جمله يموت في الجبال الوعرة ، بينمـا يفقـد هو رغبتـه في الاستمرار وسط الجو البارد · وعندما يحـاول

الأثيوبي الهبوط الى السهول فان بخلته تنهار بفعل الحرارة المرتفعة ويدفع هو نحو الانسحاب بفعل العطش • انه تطاحن بين نوعين متنافرين من نمط الحياة • وحتى الدين لم يستطع أن يقيم جسرا بين هذه الحواجز الطبيعيـــة ، فالمسيحية تتلاشى حين تصل السهول الصحراوية بينما لم يصبح الاسلام قوة فعلية في الهضبة • كما لم تكن هناك علاقـــات تجارية حقيقية بين السودان وآثيوبيا • فقوافل التجارة ظلت محصورة في السهول وظلت آثيوبيـــا تنظر باتجاه البحر الاحمر لانقاذ تجارتها • فقط النهر (النيل) يربط بين هذين العالمين المتناقضين) •

وقد استعملنا في هذا البحث كلمة (الحبشة) ومشتقاتها كما استقيناها من المصادر التاريخيـــة التي اعتمدت عليها هذه الدراسة •

الحرب بين مملكة مروى واكسوم

عيزانا يقضي على مروى :

تقع بقايا مروى مائة وخمسين كيلومترا شمالي الخرطوم الحديثة • ترى أهرامها الملوكية من بعيد، وهذا ولا شك أثرها الذي بقي على الزمن ، وقريبا

من نهر النيل يقع (معبد الشمس) الذي تسامع به الناس في كل ركن من أركان العالم المعـروف آنذاك • لقد كانت منذ أكثر من ألفي وخمسمائة عام من أعظم المدن حضارة وعمرانا • فما قصة دمارها ؟

في الجنوب من مروى وعلى بعد نحو ١٠٠٠ كيلومترا ازدهرت مدينة أخرى هي اكسوم التي يتصل تاريخهـا اتصـالا وثيقـا بجنوب الجزيرة العربية ، اذ تدفق الساميون من هناك غزاة أحيانا وتجارا بعض الأحايين على جبال الحبشة المنيعـة وسهولها الواسعةوطوروا حضارة عليهامن حضارتهم في الجزيرة سمات كثيرة وآثار ، وأقدم آثـارهم المحفوظة نحتا ترجع الى القرن الرابع قبل الميلاد • وتاجرت اكسوم مع العالم الخارجي ، مـع الهند وسيلان وفاس ومصر والجزيرة العربية •

ويقول المؤرخ الانجليزي باذل دافيدسون ان الحرب بين اكسوم وكوش (مملكة مروى) اندلعت لأسباب تجارية • فقد كانت أدوليس (٦٠ كيلومترا جنوبي مصوع) التي كانت منفذا تجاريا لاكسوم ، أيضا مركزا تجاريا للقوافل التجارية الى نهر عطبرة

فالنيل الأوسط ومروى • أحست هذه الأخيرة بالمنافسة التجارية بادىء الامر واضطرت لخوض حروب متتالية تدفع عن مكانها الممتاز في القارة • وقد عثر المنقبون في مروى على مخطوطات منحوتة تشير الى هذه الحروب بينها وبين الحبشان (أهل اكسوم) بدأت منذ الملك الكوشي حارسو يتق (٣٩٧ ـ ٣٦٢ ق•م•) ، والملك ناستاس (٣٢٨ ـ ٣٠٨ ق•م•)

ولعل مزيدا من معرفة الكتابة المروية التي لا تعرف الا أسماء الأعلام فيها الآن ، يلقي مزيدا متكافئا من الضوء على تاريخ هذه الحروب بين المملكتين • وانتصرت أكسوم في نهاية الامر وبعد نحو ٣٠٠ سنة ميلادية احتفل عيزانا ، ملك اكسوم ، الذي قاد هذا النصر بأعماله الباهرة وتفوقه على عدد من الأعداء ضخم ، وتحول مجرى التاريخ الحبشي باعتناق عيزانا الديانة المسيحية ، « اذ أعانت المسيحية ـ على حد قول دافيدسون ـ أثيوبيا على خلق وعي متميز في مملكة أكسوم ومملكة الامهريين من بعد ، أحس القوم بكينونة مستقلة عن جيرانهم وبذاتية منفصلة عنهم ، وأعان هذا الاحساس بدوره على خلق قوة داخلية في نفوس الأهلين

حفظت عليهم بقاءهم في وجه كل صعوبة ، وكان تحول اكسوم للنصرانية السبب الرئيسي أيضا في خوضها غمار حروب دينية عديدة عزلتها عن جيرانها وكانت أكثر الوقت مسلمة أو وثنية » .

ان محفورة عثر عليها العالم الجليل أنوتمان في أكسوم تلقي أضواء مثيرة على الحرب التي ثارت بين مروى وأكسوم التي خربتها تخريبا آخر الامر . يقول عيزانا في منظومته المحفورة والمكتوبة بلغة الجئز :

(بيدي الله ذي الجلال صاحب الارض والسماء . بيد الله ذي المن الذي انتصر في كل مكان ، على كل مغالب ، هنا على الارض وفي السماء ، يعلن عيزانا ان لن يقهره قاهر ، فالله سيد الناس والأشياء يؤثره ، لن يلقاه وجها لوجه عدو ، ولن يركض أثره غالب ، ولن تستطيع قوة الا قوته أن تعجزه ، قيده المنيعة من يد الله خالقه ، والله رب كل شيء وكل واحد ، أنا عيزانا بن (الا) ـ عميدا ، سليل هالين ، صاحب اكسوم وحمير ، وصاحب ريدان وسبأ ، وسلحين سيدامو والبجة ، ملك الملوك ، حاكم كاسو ، ابن (الا) عميدا ، الذي ما

قهر ، شرعت ويد الله في يدي أصارع النوبة حين خرجوا عن طاعتي وثاروا يفخرون : يصيح صائحهم اني لن أعدو التكازي وان جهدت • ركبوا مراكب الغرور يعتدون ، لا يرحمون ، ضربوا شعوب منقرتو وهاسا وباريا ، وكانوا غلاظا شدادا على السود • حنثوا بيمينهم الذي أقسموا ، وخاضوا الدماء يفتكون بالشعوب الحمر ، ولم تكن هذه أول مرة يخرجون • كانت الثالثة ، وحق عليهم العقاب • ذهبوا بعيدا مع الزهو وذبحوا جيرانهم لا يستحون ولا يخافون • ثم أرسلت الرسل بادىء الأمر أرجو أن يثوبوا لرشدهم وأن يرجعوا عن غيهم ، وكانت هي الطامة ، نهبوا رسلي وأخذوا من عليهم كل ثمين يقتنون ، وعز عليهم أن أنصحهم أنا ولكني لم أقنط • بعثت المبعوث مرة ثانية ، فسبوا المبعوث والباعث وكان لا بد من حربهم بعدها ففعلت • تسلحت بقوة الله عندي دائما ، سيد الارض والسماء والناس والبهم ، فالتقينا على ضفاف تكازي لدى كمالكي (كمالكي تعني المقرن وربما يعني التقاء نهر عطبرة بالنيل) ، وذاقوا مرارة الحرب منذ ساعاتها الأولى ، فأدركوا الا قبل لهم بجيوشي المظفرة وانقلبوا على وجوههم يفرون ،

فتقفيت آثرهم ثلاثة وعشرين يوما وهم يجـرون لا يلتفت واحد منهم ، يخافون أن ينظروا • ذبحت بعضهم ذبحا وأسرت بعضهم الآخر وسبيت وغنمت وحرقت لا يصدني عنهم رجل • وعاد قومي بالغنائم والأسرى والمدن تحت أقدامهم جازعة لاهثة • مدن من كل نوع ، من الحجر بعضها وبعضها من القش • حمل عنها جنودي الشجعان غلات خزينة ولحمـا وقديدا وكتلا من النحاس باهرة • وحرقوا ما لم يستطيعوا حمله ، لا يفيد منه أحد • حرقوا قطنا كثيرا ومخازن غلة عدة • وجرى العـدو مبهـور الأنفاس يحتمي بمياه سيدا • سبح بعضهـم عبر النهر ومات بعضهم يجاهد وان كنت لا أعرف كم مات منهم وكم عبر • تكاثروا على القوارب لعلها تنجيهم ، فغرق الرجال والنساء وهم يتزاحمون • وأسرت بعدها زعيمين كبيرين • جاءوا يجوسـان منازل الجيش يتجسسان • سقتهما أمامـي على جمليهما يرتعدان • أحدهما اسمه يساكـا الاول والثاني بتالي الاول • وكان من أسراي نبيل منهم اسمه انقبناوي • وأسرت كثيرا غيره من الرجال : دانوكوي الاول ، ودفالي الاول ، وأناكوي • وساق جنودي سوقا قسهم الاول وأخذوا تاجه الفضي من

رأسه ، كما أسروا حواريه ، سيدهم وكاركارا ، سقط خمسة زعماء في المعركة وسقط قس ، وما كان لهم أن يفلتوا فنحن أقوياء أشداء بعون الرب سيد السماء والارض • ثم جئت كاسو ، وذبحت في الطريق خلقا كثيرين وأسرت خلقا آخر عند مقرن تكازي وسهيدا • وأقمت يوما واحدا في كاسو (يعني كوش) • وأرسلت بعده جيش محازا ورفيقه حارا ، وجيش دملوا وقلح وصيرا لينهدوا فوق سيدا ويغزو المدن ، مدن الحجارة كلها والقش • يسمون الواحدة منها علوا ويسمون الثانية وداروا • وجاءتني جيوش ظاهرة ما مسها شيء • عادت تحمل المتاع كثيرا وتسوق الأسارى ، عادت وقد أذاعت الرعب والذعر في نفوس الاعداء بما قتلت من الأهلين وحرقت من البيوت والمدن ، تعينها قدرة الله القدير • وأرسلت بعدها بعثة أخرى ، أرسلت حالين ولاكين ، وعززتهما بجيش سبرات وقلح وصيرا • نهدوا كلهم صوب الجنوب ، كما نهدت أختها صوب الشمال من سيدا ومشت نحو مدائن النوبة هنات غزت نقويس أولا وانقضت بعدها على مدائن أحجر في كاسو (كوش وتعني مروري) وما كانت لهم في الحق ، أخذوها ظالمين

عنوة ، ثم غزت جيوش تبيتو وفرتيت ، وانتصرت
بيد الله وعادت سليمة ما مسها سوء ، وصلت اقليم
النوبة الحمر وذبحت أهلها وأخذت الاحياء أسرى ٠
وأعانهم الرب القدير فجاءوا بالمتاع كثيرا
وبالخيرات ٠ فأقمت عرشا عند ملتقى النهرين ،
سيدا (النيل) وتكازي (عطبره) ، قبالة مدينة
الحجر على هذا الخليج ٠ لقد أعطاني الرب رب
السماوات ٢١٤ أسيرا ذكرا كما أعطاني ٤١٥
أسيرة ، أي ٦٢٩ رجلا وامرأة وذبحت ٦٠٢ رجلا ،
أما النساء والاطفال فقد أتينا على ١٥٦ منهم أعني
٧٥٨ في الجملة أسرت وقتلت اذن ١٣٨٧ نفسا
وغنمت ١٠٥٠٠ بقرة و٦٠ ونحو ٥١٠٥٠ شاة ٠
وعززني ربي تعزيزا فأقمت هنا في صادو عرشا ٠
أتاني ربي الملك والحكم ٠ وأنا أدعوه ليشد من
أزري ، ويقوم على حكمي ، فينصرني حيث ذهبت
كما نصرني الآن ، وخذل الأعداء ، سأحكم بين
الناس بالحق والعدل يا رب لن أسيء لأحد وسأضع
عرشي هذا الذي أقمته والارض التي تقف عليها
في حجر ربي ، في يده شكرا وذكرا له ٠ وان اعتدى
عليه أحد يروم أن يزيله ، فله أن يخربه أو يمزقه ،
فلن أبقيه على الارض ، ولن أرحم نسله ولن يبقى

لهم على الارض أثر ، جزاء ما يرتكبون أو يسعون أن يرتكبوه ، فهذا العرش منحه الله لنا ربنا حامينا) • انتهى •

وقد ورث النوبة الذين كانت مملكتهم شمال مروى كل الاقليم وهم الذين حفظوا على الاقليم صلاته العديدة بخارجه باعتناقهم المسيحية واقامتهم ممالكها الثلاثة عند (فرس) و (دنقلا) العجوز و (سوبا) العواصم التي لا تزال تفاجيء الباحثين كل حين بجديد عن ممالكها القديمة (نوباتا) (مقرى) و (علوه) ، توجت أخريات أيامها بالدفع عن عقيدتها المسيحية أمام الزحف العربي الذي احتضنته في القرن الرابع عشر الميلادي من بعد وقد اهتدت بهدى الاسلام وآمنت به طائعة • ويقول المقريزي في مواعظه والمسعودي في مروجه تجلية تشير الى هذا الذي تقول به المحفورة الاكسومية من أن النوبة وقد آلت اليهم حضارة مروى وثقافتها ، كانوا الشوكة في جنب عيزانا يغيرون على (الشعوب الحمران) في مملكته وعلى رعاياه من قبائل (بربر) الحديثة و (سواكن) •

عبر عيزانا نهر تكازي (عطبره) أو سيتيت كما

يقال له في أرتريا ، واتجه صوب (سيدا) النيل ، والتقت جيوشه بأعدائه عند كمالكي (المقرن بلغة الغالا) لدى التقاء عطبرة بالنيل ، قلب (مروى) الآفلة آنذاك • وأقام الغازي الأثيوبي قاعدته هناك ـ على حد قول جمال محمد أحمد ، الكاتب السوداني ـ فيرسل للشمال فرقه الخمسة تغزو حتى تشارف أبو حمد الحديثة ، وتقف المحفورة تشيد بأعمال عيزانا في مدن الحجارة (علوا) ويغلب على ظن الباحثين انها (سوبا) التي عرفت من بعد بالقرب من الخرطوم الحالية ، وعن (داروا) التي يرجحون أنها أريجي القديمة،الحصاحيصا الحديثة، ويميلون أحيانا الى أنها (أبو حراز) عند ملتقى الرهد بالنيل الازرق • أما تبيتو وأختها (فرتيت) فموضع خلاف طويل بين العلماء • يكفي أن نقول هنا ان بعضهم يقولون أنهما جزيرتا (تبت) وأختها (برتي) شمال (كريمة) حيث عاش (النوبة الحمر) الذين يشير اليهم دافدسون في كتابه (افريقيا تحت أضواء جديدة) •

واذا كان عيزانا قد خلد انتصاراته في نقش حجري بأسلوب غاية في التباهي في ثوب ديني ، فان غزوا سودانيا مماثلا وبحجم أضخم قد جاء من

السودان الى أثيوبيا في نهاية القرن التاسع عشر أي بعد نحو ألف وستمائة عام عندما اجتاح المهديون شمال الحبشة ودمروا عاصمتها غندر وقضوا على جيش الأمبراطور يوهنس (يوحنا) الجرار في معركة القلابات الشهيرة ٠ وكرر التاريخ نفسه في ثوب ديني جديد ٠ ولم يختلف أسلوب المهدية في اسناد الامر لله وحده ولو كان الامر في كل الحالات لا يخلو من غايات دنيوية تدفع بني الانســان الى خوض غمار الحروب ٠

علاقة مملكة الفونج بالحبشة :

حوالي أوائــل القرن السادس عشر الميلادي (١٥٠٤) وفي فترة الغموض وقلة المصادر عــن أخريات مملكة (علوة) أو (العنج) كما يسمونها في السودان ظهرت دولة اسلامية يرأسها الملك عمارة دونقس من مجموعة تدعى الفونج ٠ وثار جدل لم ينته بعد حول أصل الفونج ومن أي موطن دخلوا السودان وفي أي وقت دخلوا في حلف مع العبدلاب ومملكة سوبا التي قامت على أنقاضها دولة الفونج ٠ ولم يتضح لنا على وجه التحديد هل كانت نهاية مملكة (سوبا) تدريجية أم انها كانت بهجوم على

عاصمتها وتخريبها على حسب الروايات . وقيل ان الفونج قد قدموا من مكان اسمه (لامول) في شرق افريقيا عبر أرتريا التي تحالفوا في باديء الأمر مع احدى ممالكها (مملكة عنسبة) التي كان يطلق عليها (بيت عين الشمس السوداء) ، حيث يذكر المؤرخون أن بعضا من بني أمية هربوا من مصر الى بلاد النوبة والبجة عندما خر صريعا في مصر مروان بني محمد آخر خليفة لهم للنجاة بأرواحهم من حرب الابادة التي شنها عليهم بني العباس ، ولا بد ان التزاوج بالافريقيات قد أثر في ألوانهم وطباعهم وتقاليدهم مع مرور القرون .

ويؤكد داوود روبيني اليهودي الذي جاء متنكرا في زي شريف من أشراف مكة مع قافلة تجارية قدمت من مصوع أنه عاصر قيام مملكة الفونج على يد عمارة دونقس في عام ١٥٢١ . حيث عاش معه عشرة أشهر . واتخذت دولة الفونج سنار ، على النيل الازرق ، عاصمة لها .

وشهدت هذه المملكة الازدهار وحسن التنظيم والنهضة الدينية بفضل علماء سودانيين درسوا في مصر والمدينة المنورة أو علماء مسلمون أتوا اليها

من الخارج • وقد دوّن لنا صاحب كتاب (طبقات ود ضيف الله) تراجم لاكثر من مائتين لرواد العلوم الدينية • كما نشأ بها جهاز حربي من طراز ممتاز • وامتد سلطانهم الى السودان الشمالي فنصبوا نقطة جمارك في دنقلا وسواكن في شاطيء البحر الاحمر ومعظم أجزاء أرتريا الغربية والشمالية حتى تسلم مشايخ البني عامر والحباب في أرتريا (النقارة) أي الطبل ، رمز السلطة ، من سلاطين الفونج • وقد بلغ عدد سكان سنار ، العاصمة ، في أوج مجد الفونج مائة ألف نسمة •

وعندما امتد ملك الفونج الى شاطيء البحـــر الأحمر آثار ذلك الحسد والخوف في نفوس ملوك الحبشة (أثيوبيا حاليا) • فحاول ملك الحبشة في غندر – سوسينوس – معاملة ملك الفونج بادي سيد القوم كتابع له وذلك بمعاونة والد بادي المخلوع والملتجيء بالحبشـــة • وممـــا زاد في الجفوة بين الفريقين أن نايل ود العجيب في الشرق ، تعدى على الحدود الحبشية ولم يرد بادي على احتجاج ملك الحبشة ، وان حاكما تابعا للحبشة لجأ الى منطقة تابعة لسنار ومعه فرسانه و (نحاسه) أي طبله وطالب الامبراطور بارجاع النحـــاس على

الأقل • ولم يرد بادي ، وغير ذلك من ضروب عدم التعاون • ويفسر الدكتور مكي شبيكة في كتابه (السودان عبر العصور) هذا المسلك من بادي نحو الامبراطور الاثيوبي هو أن بادي خاف على ملكه من والده عبد القادر اذ أكرم الامبراطور وفادته وأقطعه أرضا وربما يذهب خطوة أخرى بأن يمد له يد المساعدة في استرجاع عرشه من ابنه • وتجمعت كل هذه الاسباب لتجعل الامبراطور يخطط جديا في غزو أقاليم سنار ، ولكن حوادثها لم تقع في عهده بل في عهد خليفته •

حسب المصادر الحبشية بدأت الاعتداءات بمناوشات (١٦١٨ ـ ١٦١٩) على الحدود أولا ثم بوضع خطة هجوم شاملة من أعالي النيل الازرق الى منطقة كسلا ، ووزع الجيش المعتدي على ثلاث قطاعات • ففي جبهة القضارف قام الأثيوبيون بهجومين خاطفين لم يصلوا فيهما الى نهر عطبرة ورجعوا بغنائم واكتفوا بذلك بعد أن فر سكان المنطقة داخل السودان • وجيش حبشي ثان توجه الى دبركي ولكنه لم يصلها بسبب المقاومة العنيفة واكتفى بالغنائم التي نهبها من السكان • وجيش التاكا لا يذكر عنه الا أنه دخل الاقليم وأسر ملكة

لبلو (بلي) المعروفة باسم (الدجن) واسمها فاطمة وكانت امرأة عجوز تمتد مملكتها الى معظم السهول الغربية والشرقية من أرتريا وسهول السودان الشرقي وخضعت لسلطان الفونج ٠وتقول المصادر الحبشية أن الملك رأف بضعفها وشيخوختها وأعادها مكرمة الى مملكتها نظير دفع ضريبة سنوية٠ وانتهى الزحف الحبشي بلا أية نتائج سياسية ٠

كانت فرنسا ترنو بأبصارها نحو الحبشة ٠ فزيادة على النشاط التبشيري الذي بدأ برحلات بونسيه (١٦٩٨ ــ ١٦٩٩) وكرمب (١٧٠١) ورفاقهم الذين مروا بسنار قررت فرنسا سياسة التعاون التجاري بأن تصبح الحبشة سوقا لمنتوجاتهم بعد تحويلها من المذهب الارثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي٠وعليه قررت أن تثير الفتنة بين الحبشة ومملكة سنار وأن تسيطر على ميناءي سواكن ومصوع وأن تقدم للحبشة الأسلحة النارية وتمده بالمدربين ٠ وعينت دي رول سفيرا فوق العادة في غندر ووصل الى سنار ومعه مرافقين وصناديق عديدة ملأى بالهدايا وتعليماته من باريس كانت لاغراض دينية وتجارية ولكن في الوقت نفسه عهد

اليه جمع المعلومات عن القوة الحربية في البلاد التي يمر بها وبالأخص مملكة الفونج ·

وبعث دي ميليه ، قنصل فرنسا العام في مصر ، مبعوثا خاصا اسمه الياس عن طريق مصوع برسالة للأمبراطور الأثيوبي يثيره فيها على الأتـراك في مصوع وسواكن وعلى ملك سنار ويخبره بأن ملك سنار يستـورد أسلحـة بكميـات كبيرة مـن مصر لاستعمالها ضد الحبشة وعلى الامبراطور والحالة هذه أن يطلب معونة فرنسا ·

ولكن الكنيسة القبطية في مصر كانت واقفـة بالمرصاد لتلك النوايا الفرنسية وخاصة فيما يتعلق بتحويل الحبشة من المذهب اليعقوبي الارثوذكسي الى المذهب الكاثوليكي وبعثوا برسالة الى ملك سنار يخبرونه بتلك الخطـة التـي ترمي الى مساعـدة الأحباش للعدوان على سنار وان الصناديق الضخمة التي يحملها دي رول تحوي أموالا طائلة لرشوة ملك الحبشة · ومن ثم احتجز ملك سنار القنصل الفرنسي وقتله وصادر ممتلكاته ·

في عهد اياسو الثاني ، أمبراطور الحبشة ، بدأ الأحباش يغيرون على حدود مملكة سنار ، كانت

نتائجها فرار الأهالي وغنائم من الماشية والابـل والغنم ولكن في ٨ مارس (آذار) ١٧٤٤ سار اياسو نفسه على رأس جيش من غندر متجها نحو مملكة سنار • وكانت أوامره صارمة وواضحة وهي حرق القرى وقتل الناس وأخذ جمالهم وماشيتهم وسبي نسائهم وأطفالهم • ساروا ثمانية أيام وهم ينفذون هذه الأوامر • وذكرت الروايات نايل ود العجيب كالرجل الذي قاد أول مقاومة حادة على ضفاف نهر الدندر حيث ثبت العرب المؤيدون لحكومة سنار حتى قطعت مواشيهم النهر ولكن الاحباش تغلبوا عليهم في النهاية وسار جزء كبير من الجيش في طريقه حتى وصل النيل الأزرق قبالة سنار بالشرق وبقية الجيش ما زالـت شرقي الدندر وبذلـك انقسم الجيش الحبشي الى قسمين ، ولكن سنار عندما رأت جيوش الاحباش الجرارة ساد الهرج والمرج فيهـا وكاد الملك يأمر باخلائها لولا ان أشار (خميس) من عائلة دارفور المالكة والملتجيء بسنار على الملك أن يعبر الجيش السناري النيل الأزرق شمالي سنار ويقاتل العدو هناك • وفعلا نفذت الخطة وتمكن خميس من حصر جيش الاحباش في مثلث بين النيل الأزرق والدندر ودحره وعندما وصل الخبر لجيش

الحبشي الذي يقوده الامبراطور رؤي أن لا سبيل الى انقاذ جيشهم المحصور قرروا التراجع الى بلادهم .
والروايات السودانية تذكر الأمين كقائد لجيش الفونج وبعضها تذكر الشيخ محمد أبو لكيلك قائد الفرسان ولكن الخطة التي أنقذت سنار وربما دولة الفونج بأسرها هي التي دبرها خميس أمير دارفور اللاجيء بسنار .

ومخطوطة الشيخ أحمد الشونة تذكر عن تلك الواقعة في سرد حوادث عهد بادي أبو شلوخ ما يلي : (الذي جاءت الحبشة في زمانه والذي جاءه السلطان اياسو وحده بلا وزرائه البعيدين . جاءه نحو ثلاثين ألفا . وقد رأيت في رقعة مقطوعة أنه خرج الى سنار في مائة ألف . فلما سمع بادي بذلك طلب من جميع المراتب الدعاء وأرسل الى المراتب البعيدين واشتد الكرب على المسلمين وأقبلوا الى الله بالدعوات وتضرعوا اليه بالعبرات فأجابهم من يجيب المضطر اذا دعاه جيش جيشه وأمر عليهم الأمين ومعهم مقاديم جماعة فرسان مشهورين . فقطعوا البحر (النيل الأزرق) الى الشرق ، الى السلطان خميس ، سلطان دار فور واجتمعوا وساروا فتلاقوا مع بعض عساكر اياسو قرب ميمون

ومعه وزيره وخاله ولد الملول وهو حكم السطيح راقد على سرير · فهزم الله تعالى رب العالمين · وفرح الملك بادي وأهل سنار ووفوا بنذرهم وعملوا الموالد وذبحوا الولائم ونشروا الحرير وزينـوا المسجد والسوق سبعة أيام سمع سلطان الـروم (الخليفة العثماني) بذلك ففرح بنصرة الاسلام والدين) ·

وكانت هذه آخر محاولة تعمق فيها الأحباش في السودان وقبلها كما ذكرنا كانت حملة عيزانا والتي قضى فيها على مملكة مروى التاريخية ·

على أن العلاقة بين مملكة الفونج والحبشة لم تكن دوما متردية · فالتجارة ولو على نطاق محدود كانت مستمرة بين البلدين · وكانت بعثات الاحباش تفد الى بلاط سنار · وقد لعبت سنار عين الدور الذي لعبته مروى في ربط القارة الافريقية بالعالم الخارجي لمركزها الوسط ، حتى ان الكنيسة القبطية في آثيوبيا استعانت بها حين اضطربت شئونها الدينية وحين لم تستطع الاسكندرية ، أن ترسل بطريقـا يقود الكنيسة ويحرس الدين من المارقين · فكانت سنار عونا للحبشة في هذا ، وأرسلت من يحمل الخبر

الى الاسكندرية ، فلا نستغرب والحالـة هذه أن تعاونت كنيسة الاسكندرية مع سنار ضد فرنسا • كما ان بعثات الفونج كانت لا تنقطع الى ملوك الحبشة سواء لاغراض أمنية أو تجارية •

احتلال الحبشة للقلابات واستمرار الحروب المحدودة بين الحبشة والسودان في عهد الحكم المصري

كانت القلابات التي تشكل سكانها بصفة أساسية من حجاج غرب افريقيا (التكارير) الذين استقروا في السودان عند عودتهم من مكة ، بجانب القبائل العربية من الحمدة والكواهلة والضبانية ، تابعة لملوك سنار حتى بداية العهد التركي ـ المصري الذي بدأ في عام ١٨٢١ عندما تحولت تبعيتها الى الحبشة • ولعل الحبشة اغتنمت فرصة الفوضى التي صاحبت سقوط مملكة الفونج فاحتلت القلابات وأصبـح حاكم الولايات الغربية في الحبشة هو المسئول عن المدينة • وكان يعين وكيلا من جانبه من المسلمين ليديروا شئون القلابات •

وظلت القلابات تتبع للحبشة حتى عام ١٨٣٨ •

ففي ذلك العام نشب صراع بين الحبشة والحكومة التركية ـ المصرية ، فأرسل حمكدار السودان خورشيد آغا حملة الى القلابات فأقام بها حامية تركية مؤلفة من مائة جندي من الباشبوزق والأتراك • وكانت هذه هي المرة الأولى التي أقام فيها حامية في القلابات بجانب قوة التكارير الحربية • أما وضع التكارير الاداري فلم يتغير اذ ظل الأداة الادارية المسئولة عن المدينة •

وفي عهد الحكمدار موسى باشا حمدي (١٨٦٣ ـ ١٨٦٥) زادت حدة الصراع بين الحكومة التركية والحبشة حول الحدود ، وكثرت تعديات الحبشة على القبائل الخاضعة للحكم التركي المصري • فاستنجد شيخ التكارير ، جمعة أبو دقن بالحكمدار طالبا حمايته من تهديدات الامبراطور تيدروس • وفي نوفمبر (تشرين ثاني) ١٨٦٢ قام موسى حمدي على رأس حملة مكونة من ثلاثة آلاف جندي نظامي وخمسة آلاف جندي غير نظامي وسار الى القلابات ، وهناك رأى ضرورة تحصين المدينة فأنشأ فيها استحكاما منيعا ودعمه بالمدافع وأقام بها أورطتين من الجهادية بقيادة آدم بك العريض • كما فرض ضرائب جديدة على المنطقة بلغت أربعة وعشرين

الف ريال سنويا • وقام الشيخ جمعة من جانبه بفرض ضرائب جديدة ليواجه بها التزامه الجديد نحو الحكومة •

ومن جراء الاستقرار زادت أهمية القلابات التجارية كمركز تجاري يفد اليه التجار من مختلف أنحاء الحبشة والسودان ومصر بل واليونان والهند والأرمن حتى بلغ سكانها ٢٥ ألف نسمة في عام ١٨٦٤ وضرائبها السنوية ثلاثمائة ألف جنيه في السنة • هذه هي القلابات التي قدر لها أن تدخل التاريخ كموقع لاكبر معركة في تاريخ المنطقة بين الحبشة والسودان كما سيأتي ذكره •

علاقة الدولة المهدية السودانية بالدولة الحبشية

تعاون الحبشة مع مصر يغضب المهدية

علاقة الدولة المهدية التي أنشأها محمد أحمد المهدي على أساس الفكر الاسلامي بعد أن هزم الاتراك المصريين وأخرجهم من السودان (٨١ ـ ١٨٨٥) بالحبشة ، لا تخرج كما يقول محمد سعيد القدال في كتابه (المهدية والحبشة) عن حدود الفكرة العامة للمهدية التي ترى ان انتشارها يجب

ان يعم العالم وبذلك تصبح الحبشة دار حرب ·
ولم تغير مسيحية الحبشة من نظرة المهدي · ولكن
الذي أثر تأثيرا مباشرا على علاقته بالحبشة هو
دخول الحبشة الى جانب الحكومة المصرية ومساعدتها
في اجلاء الحاميات التي كانت على الحدود (القلابات،
الجيرة ، كسلا ، الخ ··) عبر أراضيها الى مصوع
بتوسط بريطانيا وعلى أساس تسليم أسلحة
الحاميات للحبشة · وبجلاء المصريين عن القلابات
هاجم الامبراطور الاثيوبي يوهنس القلابات
بخمسين ألف جندي مستغلا تمرد التكارير على
الدولة المهدية ، مما جعل المهدي يكتب الى عماله في
مناطق الحدود بمراقبة الحبشة والتشديد عليها
وتأمين الحدود (··· أما الحبشة فعما قليل سيهلك
الله باقيهم حيث انهم تعينت لحراستهم الانصار من
هنا ·· فلتكونوا راصدين لهم في الثغور الخ ··)·
ولكنه لم يحتلها ·

ولم يمنع تعدي الحبشة على الحدود المهدي من
مكاتبة الامبراطور يوهنس يدعوه الى الاسلام وتأييد
دعوته الى المهدية كما كاتب ملوك العالم · وكانت
اول رسالة له في ١٨٨٥/٦/١٥ أي قبل وفاته
بأسبوع واحد يحثه فيها على اعتناق الاسلام وذكر

له ان الملوك الذين قتلوا والدول التي انهارت انما انهارت لأنها فقدت نور الايمـان ، ثـم ذكـره بانتصاراته على الاتراك والانجليز وهدده برفق من أن مصيره لن يختلف عنهـم اذا هـو لم يؤمن بالاسلام وبدعوة المهدية • وكان يوهنس متعصبا للمسيحية ويجبر المسلمين على التنصر ومن ثم كان رده في سبتمبر (أيلول ١٨٨٥) ـ بعد وفاة المهدي ـ هو الهزء والسخرية من دعوة المهدي وتهديـده ، وتعرض لشخص المهدي بالاساءة ودعاه الى دخـول المسيحية • وبهذا الخطاب من المهدي ورد يوهنس المماثل تأكد الحاجز الديني بين الحبشة والمهديـة وأصبح هذا الحاجز واحدا من الاسباب الاساسية التي قام عليها الصراع بين البلدين •

وصار خليفة المهدي عبد الله التعايشي على نهج سياسة المهدي تجاه الحبشة • وقد تعـرض اسماعيل عبد القادر الكردفاني في كتابه (الطراز المنقوش ببشرى مقتل يوحنا ملك الحبوش) الى التبريرات الدينية والاقتصادية والسياسية التـي جعلت علاقة المهدية بالحبشة علاقة حروب وعداء مبينا ان الحديث الشريف (اتركوا الحبش مـا تركوكم) لم يعد ينطبق على الحبشة بعد أن جار

مليكها على المسلمين في بلاده وتعدى على الثغور السودانية .

وكان يوهنس قد بعث برسالة شديدة اللهجة الى الخليفة عبد الله لا تختلف في مضمونها عن رسالته للمهدي نفسه مما جعل خليفة المهدي يكتب الى عامله في القلابات ، عبد الله الطريفي معلقا على الخطاب (أما في خصوص عدو الله رئيس الحبشة فان خطابه وصل وعلم ما هو منطوي عليه ، خذله الله وأذله ، ولا تخشوا من جهته فانه مطرود مخذول) .

الحبشة تنهب القلابات :

طيلة السنوات ـ ٨٥ ـ ٨٦ ـ ١٨٨٧ استمرت المناوشات بين السودان والحبشة على طول مناطق الحدود . ولكن في يناير (كانون الثاني) ١٨٨٧ صعدت الحبشة حملتها واحتلت مدينة القلابات . وأحرق الجنود الاحباش المدينة وغنموا كل ما بها من مال وعتاد بعد أن أبادوا حامية الانصار التي كانت تتألف من ستة آلاف جندي وأخذوا بعضهم أسرى كما سبوا النساء والاطفال وقتلوا قائد الحامية محمد ارباب . وكانت القوات الحبشية

تتألف من ستين ألف جندي بقيادة رأس عدار ، حاكم اقليم غوجام • ولكن لم يوال الاحباش انتصاراتهم بل عادوا الى بلادهم بما غنموا •

المهدية تهادن الحبشة كسبا للوقت :

بعد أن رأى الخليفة ما حل بالقلابات مع بعد قواته الأساسية من المنطقة رأى انه من حسن السياسة كسب الوقت حتى يعد عدته العسكرية • فكتب الى يوهنس خطابا معتدلا نسبيا في فبراير (شباط ١٨٨٧) يقول فيه (نحن كنا ملاحظين اشارة قول سيد المرسلين اتركوا الحبش ما تركوكم ومن ثم لم نصرح لجيوش المسلمين بغزو جهتكم حتى حصل منك التعدي) • ويستمر الخليفة في الحديث عن اعتداءات الحبش المتكررة وسلبهم ونهبهم وايوائهم المرتدين من المسلمين من أمثال صالح شنقا وعجيل وأبي جن الشكري والمضوي عبد الرحمن • ثم وضع الخليفة ليوهنس ثلاثة شروط لينفذها حتى يسلم من الحرب وهي أن يرجع جميع الأسرى الذين بطرفه ، ثانيا أن يعيد المرتدين اذا كانت لهم رغبة أو يحصل على تنازلات كتابية يعلنون فيها تنازلهم عن دينهم حتى يعتبروا

من غير المسلمين . وأخيرا أن يكف يده عن التعدي على بلاد الاسلام ويلزم حدوده . فأن أوفى بهذه الشروط فان الخليفة يعده بأن يكف عن الحرب ولا يدع جيش المسلمين يدخل بلاده ، وان أبى فلا سبيل الا الحرب بينهما . ولم يرد يوهنس على هذه الرسالة فأتبعها الخليفة بأخرى شديدة اللهجة يدعوه فيها الى الاسلام ويتوعده بالويل والثبور ان هو لم يستجب .

استمرار التجارة بين البلدين وسط استعدادات عسكرية :

اتبع عامل المهدية في القلابات ـ يونس الدكيم ، الذي أرسله الخليفة على رأس ٣٠ ألف جندي لحماية الثغور بعد الهجوم الحبشي الاخير على القلابات ، اتبع سياسة مرنة في الاشهر الأولى من منتصف عام ١٨٨٧ تسمح باستمرار التجارة بين البلدين والتي كانت تقوم بها طائفة تسمى (النقادة) حيث يصفهم في رسالته للخليفة (بأنهم مساكين أهل بيع وشراء فقط لا أهل محاربة ... وحاصلة الثمرة في حضورهم للمجاهدين ويؤخذ منهم الثمن من جملة الأشياء التي يحصرونها) . وغلب الخليفة

المنفعة التجارية والمصلحة التي سيجنيها المحاربون من ذلك ووافقه على فعله مع (استمرار المناوشات الحربية المحدودة قصد استطلاع أخبار الحبش العسكرية) • عندئذ وافق يونس الدكيم على طلب زعيم النقادة اكشم جبرو بأن يسمح باستمرار التجارة بين البلدين على أن يظل كل على دينه •

على أن يونس الطموح الذي أراد أن ترتفع أسهمه أمام الخليفة خالف هذا الاتفاق مع النقادة فصادر قافلة تجارية في القلابات مكونة من ٤٠٢ جملا وبغلا وحمارا وأرسلها الى أمدرمان كغنائم حربية ، الأمر الذي لم يرض به الخليفة • ومع ذلك فان التجارة بين البلدين ظلت منتعشة بعد رحيل يونس الدكيم وقدوم حمدان أبو عنجة القائد المشهور •

أبو عنجة يدخل غندر ، العاصمة التاريخية للحبشة

في منتصف يناير (كانون ثاني) ١٨٨٨ وصل حمدان أبو عنجة على رأس جيش كبير في وقت كان الحبش يقومون باستعداداتهم الحربية من جانب

والأنصار يستعدون من الجانب الآخر • وكتب الخليفة الى قائده حمدان يوصيه بالاستعداد والتحفظ معبرا عن خشيته من المبادأة بالهجوم لما كان يعلمه من تزود الحبش بأسلحة نارية حديثة من الانجليز والطليان بجانب ما أخذوه من الحاميات المصرية •

وأخيرا قرر الأنصار البدأ بالهجوم بعد أن تأكدت لديهم نوايا الحبشة بمهاجمتهم في مقرهم بالقلابات • فزحف حمدان أبو عنجة في ١١ يناير (كانون ثاني ١٨٨٨) على رأس جيش من الانصار قوامه ٢٥ ألف مجاهد • وبعد عدد من المناوشات والمعارك الصغيرة التقى مع الجيش الرئيسي الحبشي وقوامه ١٤٠ ألف مقاتل • وبادر الجيش بالضرب أولا بأربعة مدافع ثم بالبنادق • واستمر الانصار سائرين نحوهم دون أن يسمح لهم حمدان بالضرب • وفي هذا يقول حمدان في رسالته البليغة الى الخليفة (ولما تم لنا في المسير تسعة أيام وصلنا دمبيا محل الكافر عدو الله النقوس عدار • فالتقتنا طلائعه الفرسان في أول البلاد فهزمناهم وقتلنا منهم واستطردنا السير بقية يومنا الى الاصفرار ، فنزلنا قريبا من ديم أعداء الله ، ولما

طلع الفجر العاشر من خروجنا من القلابات توضأنا
على حالتنا المعهودة ورتبنا حزب الرحمن من الاسلحة
والخيول بحسب ما يسره الله لنا من عمله وقمنا
بعد صلاة الصبح على بركة الله قاصدين ملاقاة
حزب الشيطان وعلينا من الله السكينة والوقار
لا نؤمل الا لقاء الله ونصرة الدين • ولما تراءينا
مع أعداء الله الكفرة اذا هم من كثرتهم لا أول لهم
يعرف ولا آخر يوصف • فابتدرونا ضربا بمدافعهم
الاربعة بمسافة لا يصلها الرمنتون لزعمهم أننا
نقف مكاننا وتناوشهم مناوشة • وما زالوا كذلك
ونحن زاحفون عليهم حتى ١٦ قنبلة ثم شرعوا
بضرب السلاح • هذا كله والاخوان زاحفون عليهم
يسبق بعضهم بعضا اقداما بلا احجام طمعا فيما
ينالونه من نفحات العزيز العلام • ولم نأذن لهم
بالضرب الى أن حققنا بأن أفواه السلاح امتلأت من
أعداء الله • فعند ذلك شرعنا في ضربهم بغاية
الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم • فما كانت
لهم ساعة الا وقد زلزل الله أقدامهم وألحق الرعب
في قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين • وبعد
انكشاف الاعداء اقتفينا أثرهم طعنا وضربا وأسرا
حتى اضطر الذين أمامنا الى أن رموا بأنفسهم في

النهر المذكور • هذا ولما خلت الدار من الكفـار وأنتنت رائحة الدم الديم من جيف أعداء الله وبرمم بهائمهم ، انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين غندر ، أم مدائنهم يوم السبت في ٢٧ جمادي الاول ١٣٠٥هـ وقبل وصولنا اليها قابلنا أهل الديار المذكورة أعلاه راغبين الأمان ورافعين الرايات البيض ، وقد أبدى البعض الاغصان الخضراء • ثم لما قربنا اليها قابلنا جميع كبرائها من مسلمي جبرته بالطاعة والاذعان طالبين الامان فأمناهم ، ودخلنا يوم الاثنين جلنا فيها (يمينا وشمالا فأعجبنا بما شاهدناه من القصور الشامخات وأحرقنا ٤٥ كنيسة ما عدا الكنائس التي احرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهـي تزيد على ٢٠٠ كنيسة) •

ووجد الانصار أربع قسس بالمدينـة فمنـع حمدان قتلهم وأعطاهم الأمان •

هذا هو التقرير الذي يصف اعمال حمـدان الحربية في الحبشة حتى غندر • ورجع بعد ذلك الى مقر قيادته بالقلابات يحمل أكاليل النصر والظفر •

ولكن لماذا لم يبق حمدان في غندر ويعمل على تحصينها ويواصل زحفه الى الحبشة كلها لقد برر

حمدان عودته في رسالته للخليفة قائلا (لقد كانت عودتنا للمركز كوعدنا للمراحم وعـدم التصريح الكافي من قبل هذا في اقامتنا بدار الحبشة والتوجه لما يلزم من الجهات ولأن الاخبار قد انقطعت من جهتنا على السيادة (الخليفة) من مدة ولذلـك حضرنا بالسلامة) ٠

ففي هذه الرسالة يذكر أبو عنجة أربعة أسباب لرجوعه ولكنها لا تكفي لتفسير عودة ذلك الجيش المنتصر وعدم احتفاظه بانتصاره ٠ فاذا كان السبب الرئيسي هو عدم تصريح الخليفة للجيش بالبقاء في الحبشة ، فلماذا لم يصرح الخليفة بذلك ٠ لا شك ان العامل الجغرافي كان من أهم تلك الاسباب ٠ فطبيعة الارض الجبلية وغزارة الامطار وبرودة الجو كلها لا تناسب الانصار الذين لم يألفوا تلك البيئة الجغرافية العنيفة ٠ على ان الحبشة خلافا لمصر لم تكن مجالا لتسع المهدية ، ولهذا وحسب رأي القدال كانت معارك المهدية في تلك المنطقة أمـا غزوات من أجل الغنيمـة أو بعض الاعمـال شبه البوليسية أو حرب دفاعية ٠ وعليه فان القلابات كانت أكثر ملاءمة لتنفيذ تلك السياسة من غندر التي تبعد كثيرا عن مركز تمويل الجيش وتقـع

وسط أرض جبلية وعرة · علاوة على ذلك فـان سكان المنطقة الاحباش الذين تفرقوا في الجبـال بدرت منهم عدة أعمال عدائية دفاعا عن وطنهم ودينهم ولذلك فان عملية التوسع الحربي في منطقة معادية تصبح عملية شاقة ·

حمدان يحمي التجارة بين البلدين ويكاتب أمراء الحبشة يدعوهم للمهـدية

وبالرغم من الحرب التي دارت بين الانصـار والحبشة فان عملية التبادل التجاري بين البلدين استمرت في انتعاش · وكان يرى حمدان في تلك الحركة التجارية منفعة للمنطقة خصوصـا وأن انتصاره الاخير على الحبشة قد جعل (النقادة) ـ تجار الحبشة ـ يفـدون على القلابات لبيـع تجارتهم للانصار الذين امتلأت أياديهم بغنائـم الحبشة · فقد شهدت الايام التي أعقبت عودته الى القلابات أفواجا كبيرة من النقادة اذ تكاثر عددهم « على غير الطاقة في كل يوم دفعة أو دفعتين وكانوا لكثرتهم اذا وصل الديم (المدينة) أولهم في أول وقت من صلاة الظهر لا ينقطع آخرهم الى المغرب » كما يقول حمدان في رسالته للخليفـة · وكانوا

يدخلون القلابات بعد أن ينزعوا الصلبان (المعتب) عن أعناقهم كما أن بعضهم جاء متجردا من كل العوائق ليستقر في دولة المهدية • والحقيقة فان أولئك النقادية هم فئة من التجار تجري وراء مصالحها بغض النظر عن ارتباطاتها الدينية •

بعد أن عاد حمدان من حملته على الحبشة رأى أن يستغل انتصاره الحربي سياسيا • فبعث بعدة رسائل وانذارات الى بعض قادة الحبش خصوصا الرأس عدار والملك منيليك ، ملك شوا • وبلغت تلك الرسائل ١٨ كلها متشابهة في صيغها تطالب بقبول الاسلام أو الحرب • ووصل الى حمدان رد الرأس عدار مع رجلين من الجبرته • وقد طلب رأس عدار الصلح من حمدان وعرض شراء أسرى الحبشة من الانصار على أن يرد هو للانصار أسراهم الذين أخذوا في المعركة التي استشهد فيها ولد أرباب • وأكد أنه على استعداد لدفع الجزية ورد عليهم حمدان ردا قاطعا اذ قال له بأنه لا يريد الدنيا ولا زخرفها لأنها ذاهبة وكل ما يريده منه أن ينطق بالشهادتين • ولكن حمدان كان ينوي أن يرسل الى رأس عدار ابنته التي وقعت في الأسر ولكن البنت ماتت لمرض ألم بها فأرسل حمدان

خطابا رقيقا الى عدار استهله (بأن الموت حق لا منجى لكل حي بعد الله منه) ، وبعث بجاريتها اليه ليتأكد بنفسه من صدق حديثه • ثم أخبره بأن ابنه مكونن في أمان وعوفي جرح الرصاص الذي أصابه في المعارك الأخيرة • وأخيرا طلب منه (دخول الاسلام والا فلا صلح الا الحرب واشتداد الضرب حتى يهلك الله أعداءه) • ورد رأس عدار بخطاب رقيق خاطب فيه حمدانا بقوله (حبيبي في الله حضرة جناب الأمير حمدان أبو عنجة أمير أمراء بقعة القلابات) • ثم تحدث له عن اكرامه لابنائه وعوائله وان هذا الكرم قد جعله غاية (الممنونية • ثم طلب ارسال ابنه حتى يكون في غاية الفرح والممنونية من جهتكم حيث اننا لم نرغب من جهاتكم ألا يكون بيننا غاية المحبة ولا نسمح في كل ما يكون بيننا قول قايد فاسد) •

ويعتقد القدال في كتابه (المهدية والحبشة) أن نوعا من العلاقة الودية قد نشأ بين القائدين حتى اعتقد حمدان ان الرأس عدار مسلم للمهدية لولا وجود منيليك ملك شوا الذي يحول بينه وبين ذلك • ولكنه يرجح أن عدار كان يحاول كسب الوقت وتفادي أي هجوم عليه وهو في موقف ضعيف لذلك

كان لين الجانب حتى اعتقد حمدان أنه مسلم للمهدية ، في وقت كان يوهنس مشغولا بمحاربة الطليان مع معظم جيوشه ليرث المصريين في مصوع وشواطيء أرتريا ٠

وبدأت صلات منيليك بنفس الرسالة التي بعث بها الى رأس عدار ٠ الا أن منيليك لم يشتبك مع حمدان في معركة حربية ولكنه بأمر من يوهنس توجه نحو مناطق الحدود بجيشه القادم من شوا ٠ وأشار حمدان في الرسالة الى أنه اذا دخل في الاسلام فانه يعده بأن يعينه أميرا على عموم أرض الحبشة والا (فانا مستعدون لصدك وتدميرك بعون الله وقوته وان لم تأتنا فسنأتيك) ٠

وعلى الرغم من توتر العلاقات بين منيليك ويوهنس تنافسا على عرش الحبشة،فقد رد منيليك على خطاب حمدان بخطاب جاد ، بل وذهب الى حد الاساءة للاسلام على خلاف ما عرف عن أسلوب منيليك الدبلوماسي ، ويرى ساندرسون أن منيليك ذهب الى ذلك المذهب العنيف لكي يرضي الرأي العام الحبشي المسيحي في تأكيد موقفه من الاسلام ٠

وكان أبو عنجة قد سمع بأن منيليك ينوي فعلا

وصول القلابات واقامة ثلاثة كنائس بها ، وينوي كذلك مهاجمة حمدان على حين غفلة • ولكن منيليك لم يواصل زحفه على القلابات بل كر راجعا الى شوا • ويقال انه عاد بناء على تعليمات يوهنس حتى تتوحد جميع جيوش الحبشة ضد المهدية بعد أن يفرغ من محاربة الطليان واحتلال مصوع وبعد انقضاء فصل الامطار التي تمنع تحرك الجيوش • ويرجح بعض المؤرخين الى أن منيليك انما عاد بجيشه الى مملكته ليوفره لصراعه مع يوهنس من أجل العرش بعد أن تكون جيوش يوهنس قد أنهكت في حروبها مع المهدية والطليان • وهذا الرأي أقرب للصواب لما عرف بينهما من عداء •

وتحرك أبو عنجة من القلابات في ١٧ يونيو (حزيران) ١٨٨٨ ومعه احدى عشر ألف بندقية رامنتون وعبر نهر عطبره • وفي ٢٥ منه وصل الى أرض دمبيا حيث أقام معسكرا في مكان يسمى (تنكلى) • وقد قابله أهل الجهة والجهات المجاورة بالطاعة والامتثال طالبين الامان وقاموا باكرام جيشه • كما انضم اليه أغلب الجبرته المسلمين الذين كان يجبرهم يوهنس على التنصر حتى (لم يبق من المسلمين الا واجتمع به) كما جاء في رسالته

للخليفة • ولم يجد حمدان أثرا للحبش • فيوهنس ما زال مشغولا بالايطاليين ومنيليك باق في شوا ورأس عدار هرب الى قوجام • ولذلك لم تثمر تلك الحملة عن معارك كبيرة سوى تشتيت بعد التجمعات الحبشية الصغيرة وسلب الغنائم • وعاد الى القلابات في ٧ أغسطس (آب) ١٨٨٨ • ثم توجه الى أم درمان للتشاور مع الخليفة •

يوهنس يطلب من المهدية حلف دفاعي ضد الأوروبيين والأتراك

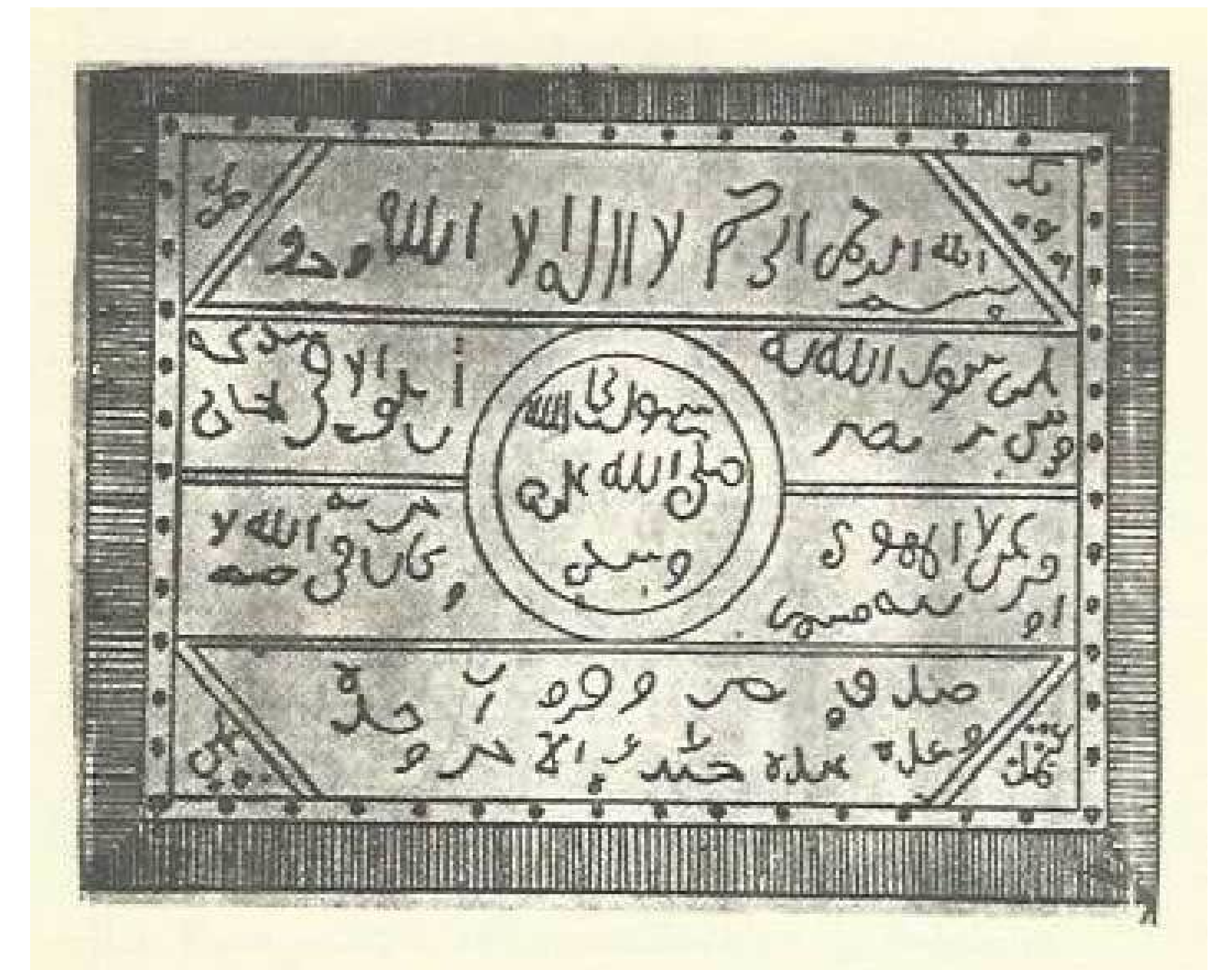
بعد عودة حمدان مباشرة وصلت رسالة من يوهنس في ٢٥ ديسمبر (كانون أول) ١٨٨٨ وهي رسالة على جانب من الأهمية • يبدأ يوهنس رسالته بالحديث عن غزو الأتراك للسودان ، ثم محاولة غزوهم لبلاد التجراي عن طريق مصوع وكيف تمكن الجيش من هزيمتهم مرتين • ولعل يوهنس قد قصد من ذكر تلك الحقائق أن يقرب بين الحبش والانصار وأنهم قاسوا جميعا من الاتراك • ثم انتقل الى الحديث عن الحروبات التي دارت بين البلدين وكيف أنها كانت حروبات بلا جدوى سوى هلاك المساكين • ولذلك فهو لا يرى فائدة منها ومن

استئنافها . ويقترح أن تظل كل بلد متمسكة بحدودها دون التعدي على الأخرى . ثم ينتقل بعد ذلك للنقطة الاساسية في رسالته فيقول بأن العدو الرئيسي له وللانصار هم الافرنج (الأوربيون) لأنهم اذا هزموا الحبش فحتما سيقومون بالهجوم على الانصار . واذا هزموا الانصار هجموا على الحبش . ولذلك يقترح يوهنس أن يتحد معه الانصار لحرب الافرنج حتى تصير البلاد في أمان « ويتردد التجار من أهل بلادنا بالمتاجر الى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد على غندر لأجل المعايش والمكاسب لأهلكم ولأهلنا » . ولكي يؤكد يوهنس صدقه قال : ان الايطاليين طلبوا منه سابقا أن يتعاون معهم لمحاربة الانصار في جهة كسلا لأن الانجليز سيهجمون من جهة الشمال . ويقول يوهنس بأنه رفض طلب الايطاليين ولهذا ناصبوه العداء . ويختتم رسالته بقوله : « ان الاتراك والايطاليين أعداء له وللانصار ولذلك يرى ضرورة التعاون بينه وبين الانصار » .

كانت هذه رسالة عاقلة (كتبت بالعربية والامهرية كما كانت كل مراسلات الحبشة مع المهدية حيث كان علماء الجبرتة المسلمين يقومون بالترجمة) ، بغض النظر عن الدوافع التي أملتها

اذ كان يوهنس مهددا من الخارج بالغزو الايطالي ومن الداخل بالتفتت والمعارضة الامهرية التي كان يتزعمها منيليك المتآمر مع الطليان · وكان يوهنس من التجراي ·

فماذا كان رد فعل ذلك الخطاب عند حمدان ، استهل حمدان رده الى يوهنس بالحديث عن كرامات المهدي وانتصاراته · أما فيما يختص بطلب يوهنس لعقد صلح وحلف مع الانصار فقد كان رد حمدان قاطعا بل كان خاليا من أي تقييم صحيح للموقف على حد قول القدال · فقد رد حمدان قائلا (أما طلبك للصلح منا وأنت باق على كفرك فبعيد بعد المشرقين ودليل على ضعف عقلك وفراغ ذهنك فيا لك من سفيه ويا لك من جاهل · أتريد منا صلحا ومؤاخاة ولم تدخل في الدين الحق وكتاب الله ناه عن ذلك ، فان رمت الصلح فقل مخلصا من قلبك « أشهد أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله » والا فانا نقاتلكم ونخرب دياركم ونيتم أطفالكم ونغنم أموالكم) · وهذا الخطاب يتمشى مع الفلسفة الاساسية للدعوة المهدية والتي تنادي بالايمان بالمهدية أولا والا الحرب ، وهي الفكرة التي سماها الدكتور مكي شبيكة (الجامعة الاسلامية)



الراية المهدية

وكانت فكرة الجامعة الاسلامية هي الفلسفة التي تحكمت في سياسة الخليفة في الفترة الأولى من حكمه ·

ومن طريف ما ورد في رد حمدان غضبه من كلمة (دجاج) أبو عنجة حيث افتتح يوهنس الرسالة بقوله (الى المعظم دجاج أبو عنجة) · وكلمة (دجياش) وليس (الدجاج) كما كتبها المترجم خطأ ، تعني بالحبشية لقب تعظيم شبيه بالباشا ، اذ قال حمدان في معرض رده (فأما نداؤك لي في صدر الجواب بقولك (دجاج) أبو عنجة فاعلم اني لست بدجاج وانما أنت الدجاج لكفرك وتماديك على غضب ربك) ·

أما سبب تلك السياسة الجافة من جانب المهدية والتي لا تعكس أي تفهم لسياسة يوهنس أو أي تجاوب معها فمرتبط بظروف الانصار وموقفهم في ذلك الوقت بالذات وتقييمهم لموقف الحبش · لقد كان لدى الانصار احساس ـ ربما مبالغ فيه ـ بقوتهم وقدرتهم · وقد كان مصدر ذلك الاحساس انتصارات حمدان التي حققها مؤخرا · وكان مصدره أيضا فهم الانصار لضعف يوهنس في ذلك

الوقت ومواجهته للايطاليين من جانب وتعدد مشاكله الداخلية من جانب آخر حتى ان حمدان أكد للخليفة بأن يوهنس لا يريد الحرب وليس في موقف يمكنه من أن يحارب • فاذا أضفنا الى هذه الأسباب أن فكرة الجامعة الاسلامية كانت هي الفلسفة المتحكمة في سياسة المهدية في ذلك الوقت لوجدنا أن رد حمدان العنيف على يوهنس كان له ما يقوم عليه •

زحف يوهنس على القلابات ومقتله :

لما اطلع يوهنس على خطاب أبو عنجة طار صوابه وصمم على طرد (الدراويش) من القلابات ومطاردتهم الى أم درمان • فأرسل الى جميع مدائن مملكته باستنفار الجيوش فاجتمع عليه نحو ٢٥٠ ألف مقاتل وزحف بهم قاصدا القلابات تاركا الطليان يكملون احتلالهم لأرتريا التي جلا عنها المصريون ، وشاءت الاقدار ألا تقع أرتريا في أيدي الحبشة منذ ذلك الوقت اذ أنه لو أن المهدية قبلت اقتراحه بالتحالف والتهادن لتفرغ يوهنس للطليان الذين كان يملك عليهم التفوق الحربي حيث لم تكن في مصوع الا حامية ايطالية صغيرة •

وعلم أبو عنجة باستعداد يوهنس فشرع في تحصين القلابات فأحاط الديم بزريبة مربعة متينة ومن داخلها متراس بغاية الحصانة · وأقام داخل المتراس سورا طول الجانب منه ١٧٠ مترا لوقاية العائلات والذخائر والمؤن وجعل للزريبة أربعة أبواب على كل باب مدفع · ولكنه توفي في ٢٩ يناير (كانون الثاني ١٨٨٩ اثر اصابته بحمى عن ٥٢ عاما فبكاه الجيش كله لأنه كان محبوبا من الجميع · وكان أبو عنجة طويل القامة غليظ الجثة قوي البنية خفيف اللحية أشيبها أسود اللون وكان مهيبا عادلا حسن الخلق سديد الرأي · وكان أشد قواد المهدية بأسا وأكثرهم جرأة وأطوع الى الخليفة من بنانه ، لذلك حزن عليه حزنا شديدا ونعاه الى جميع أمرائه في السودان · وقد رثاه محمد المجذوب بن الطاهر بقصيدة منها :

حمدان انك طالما سمعت العدى
ذلا وذكرك في المحافل يرفع
ما وجهت رايات نصرك وجهة
الا وبالظفر المؤكد ترجع
فلك الهناء بلقاء ربك شاهرا
سيف الجهاد وكل قرم تقمع

فسحائـــب الرضوان تغشى تربه
ضمتك ما نجـــم يغيب ويطلـــع

وكان أبو عنجة قد سمى الزاكي طمل خلفا له على جيوش القلابات وأقره الخليفة • فأتم زاكي الزريبة وصف عليها المقاتلة وقد بلغوا نحو ٦٠ ألفا ومعهم ١٢ ألف بندقية رمنتون و ٣٥٠٠ بندقية من أجناس شتى وألف جواد • ويوم السبت ٩ مارس (آذار) ١٨٨٩ وصـــل الملك يوهنس القلابـــات بجيوشه الجرارة وانتشبت حرب هائلـــة بهجـــوم الحبش على القلابات وأحاطوا بالأنصار من كـــل الجهات بخيول وأسلحة « في شيء يكاد لا يوصف » كحلقة خاتم فسد غبارهم الأفق واختفت الشمس تماما • والتحم الجيشان وصار الضرب بكل أنواع الأسلحة وتمكن الحبش من احراز نصر مبكر حتى جرح يوهنس جرحا مميتا وحمله رجال حاشيتـــه وخرجوا به من الموقعة فوقع الفشل في الاحباش اذ ذاك انهزموا شر انهزام وتبعهم الزاكي في اليوم التالي فأدركهم على نهر عطبرة يوم الثلاثاء ١٢ مارس (آذار) ١٨٨٩ فأوقع فيهم واقعة شديدة فقتل وغنم وسبى وعاد الى القلابات ومعـــه رأس

يوهنس الذي بعث به الى الخليفة في أم درمان مع كتاب طويل بليغ البيان ٠

وغنم الانصار غنائم كثيرة من أسلحة وخيول وبغال وحمير وأسرى نساء ورجالا حتى بلغ سعر الجارية على ما أورده الكردفاني في كتابه (الطراز المنقوش في ذكر مقتل يوحنا ملك الحبوش) في القضارف ثلاثة ريال والجميلة عشرة ريال والحمار قرشين وان أم درمان امتلأت بنساء الحبش وغنيمتهم وكان استرقاق الأسرى والأسيرات قانونا معمولا به في العالم قديما ما لم تتم فديتهم من دولتهـم أو ذويهم ٠ وكانت الحبشة تطبق نفس القاعدة على أسرى المهدية ٠

وكان من انتصار الزاكي في القلابات أن عمت الحبشة سنوات من الفوضى والاضطراب لم يفت على الانصار ادراكها ٠ فقد وصف الزاكـي في رسالته للخليفة الحبشة (بأنهم في أشد الهرج والمرج والزلزلة والهول ولقـد صاروا يقتلـون بعضهم بعضا) واستنتج (ان جميع الدار بعد هذا تؤيد المهدية) ولذلك اقترح على الخليفة أن يكتب الى بعض قادة الحبشة مثل رأس عدار ومنيليك وغيرهما

(لأنهم اذا أكرموا بمذاكرة من لدن جنابكم يحضرون بالطاعة مهرولين لا سيما أن تلوح لهما بأن لهم الملك في الجهة على حكم المهدية) فاستجاب الخليفة لطلب الزاكي فكتب الى منيليك ورأس عدار وبعض قواد الحبشة الآخرين ·

ويبدو أن الخليفة والزاكي وبقية قواد المهدية قد بالغوا في أهمية انتصارهم الحربي على يوهنس لأنهم كانوا يجهلون حقيقة الصراعات الداخلية التي كان يدور رحاها داخل الحبشة بسبب طموح القواد البارزين في الاستيلاء على السلطة بعد مقتل الامبراطور وهي عادة جرت عليها سنة الحبشة في الملك · لذلك فانتصار الخليفة على الحبشة لم يخضعها ولكنه أنهى الصراع الدموي الحاد الذي تحول بعد ذلك الى غزوات على الحدود بين البلدين كان يقوم بها قواد المهدية من أجل تهدئة مناطق الحدود وكسب المؤن والغنائم ·

أما لماذا لم تواصل قوات المهدية المنتصرة التي شتت شمل جيش الحبشة الاساسي زحفها بالتوغل داخل الحبشة وتغتنم الفوضى التي اجتاحتها ، فان ذلك عائد الى سياسة الخليفة التي تتلخص في أن

الحبشة بلاد واسعة وغزوها بالغ الصعوبة والحفاظ على الأمن فيها أصعب بسبب وعورة مسالكها الجبلية ·

على ان الصراعات الداخلية دفعت بعض أعداء الأمس من قادة الحبشة للاستنجاد بالمهدية فكتب رأس عدار من غوجام يطلب قدوم الانصار لمساعدته ضد منيليك الذي أعلن نفسه أمبراطورا على الحبشة · غير أن الزاكي لم يطمئن الى رسالة عدار ففي رأيه (لا أمان لهم) ، واعتقد أن عدار مع منيليك وما قاله ، ليس الا خدعة اذ ما زال يحمل ضغينة للانصار منذ انتصارهم عليه في عهد حمدان · كما لم يسعف الزاكي زعيما آخر اسمه (نجاشي) أعلن ولاءه للمهدية قبل أن يقضي عليه منيليك · وكان الزاكي يؤكد ضرورة الحرب ضد منيليك قبل أن تقوى شوكته « ولأن الحبش أهل مكر وخداع ، وبعيد عنهم الدخول في الاسلام » كما جاء في رسالته للخليفة · ولكن الخليفة رفض محاربة منيليك » ما لم تتوفر الكفاية لضرب الاعداء · ولعل الخليفة قد اكتفى بانتصاره الاخير على الحبشة ولم يرد أن يقحم جيشه في حرب جديدة مجهولة المصير في مرتفعات الحبشة الغريبة عليهم ·

المهدية تتصالح مع منيليك

الخليفة يرفض عرض منيليك بوضع السودان تحت الحماية الفرنسية لمجابهة الغزو الانجليزي

في مستهل ١٨٩٣ شهدت المنطقة نهاية الحروبات بين السودان والحبشة حتى ان مركز الجيش نقل من القلابات الى القضارف . وقد لخص الزاكي تلك النهاية في قوله (ان الحبش المجاورين بالقرب أذعنوا للصلح وأوردوا (الجبر) أي الضريبة . وما دام راحة الانصار بالقضارف ونحن بالقرب منهم فما عليهم اعطاءنا الحوادث أولا بأول) . فانتقل الزاكي الى القضارف وترك بالقلابات حامية من خمسمائة جندي .

على أن غزو الطليان لدولة المهدية من الشرق واحتلالهم كسلا بعد صدهم لحملة المهدية في أغوردات ، وهجوم الانجليز على السودان من جهة مصر بقيادة اللورد كتشنر وتدهور الاحوال الداخلية في دولة المهدية بسبب الصراعات ولجوء الخليفة الى تصفية من يشك بولائه من قواده حتى



منليك

صفى بعد تعذيب مريع قائده البطل الزاكي طمل لوشاية ، وميله الى تولية التعايشة أبناء قبيلتــه المراكز الحساسة ، مع انتشار المجاعات ، جعــل الخليفة يتنازل كثيرا عن التشدد الديني الذي كان سمة علاقته بالحبشة في الفترات الأولى من حكمه • فشهدت السنوات الاخيرة من عهده محاولات جادة لاقامة نوع من السلام أو قل الصلح مع الحبشة • فنشطت حركة الوفود التي كانت تروح وتغدو بين الخليفة والامبراطور منيليك • على ان الحبش كانوا أكثر وعيا بضرورة احلال السلم خصوصا قبيل اصطدامهم وبعد انتصارهم على الايطاليين في عدوا •

وبدأت تلك المفاوضات برسول من قبل منيليك يدعى محمد الطيب الجبرتي يحمل عرضا للصلح في يوليو (تموز) ١٨٩٥ ، واتبعه بمبعوث آخر بعد أن مات المبعوث الاول في الطريق يدعى الحاج أحمد الجبرتي يحمل رسالة مؤرخة في ١٦ ابريل (نيسان) ١٨٩٦ جاء فيها (ومن جهتي أنا أحب الصلح والأمان والمحبة كما أخبرتكم قبل الآن •• والآن كذلك أحب أن أعيش بالصلح والمحبة مــع جيراني الافريقيين ولا أريد معهم حرب ولا اكراه

بل المحبة الصافية الحقيقية التي هي طيبة ٠٠ أحب أيضا أن أعيش بالمحبة مـع الدول البعيدة عـن بلادنا ٠٠٠ ولكن العدو الذي يجيء علي من دون حق أرجعه بقوة ربنا ٠٠ ولا أريد أن أفوت حدود أثيوبيا وأدور خناقة مع الناس) ٠

وكتب بت ودد منقشا بن يوهنس، حاكم التجراي خطابا آخر بتاريخ ١٧ يوليو (تموز) ١٨٩٦ الى الخليفة مؤكدا ذلك المعنى قائلا (وأرجو أن ألفت نظرك لتكون على حذر من الانجليز الذين دخلوا دنقلا في الشتاء وان عدوك عدونا وعدونا عدوك ونحن يدا واحدة في اتحاد متين) ٠

فبعث الخليفة في سبتمبر (أيلون) ١٨٩٦ وفدا كبيرا برئاسة محمد عثمان خالد وعبد الرحمـن الجبرتي ٠ واستقبل الوفد في الحبشة استقبالا حارا وسلم الوفد الرسالة لمنيليك والخليفـة في تلـك الرسالة يقبل مبدئيا العرض المقدم من منيليك لعقد الصلح بينهما ولكنه أبدى تحفظات معينة ٠ فهـو يؤكد لمنيليك بأنه لا صلة له بالأوروبيين وليس بينهم وبينه الا الحرب٠ويطلب من منيليك أن يكون كذلك وأن يمنع جميع الأوروبيين من الدخول الى

بلاده . وكان منيليك ميالا الى الفرنسيين . فاذا وافق منيليك على ذلك عليه أن يرسل شخصا من طرفه « لانعقاد الصلح » . فتلقى منيليك الرسالة وعلى حد وصف رئيس الوفد (بغاية السرور بالقبول والانشراح) جميع مقاصد خليفة المهدي وافق عليها موافقة الطباق الصحاح) . وكان منيليك متحمسا لعقد الصلح ويرى ان الخلافات الدينية لا تهم كثيرا بل اقترح انشاء مواصلات منتظمة بين البلدين .

وعادت مع بعثة الخليفة بعثة من منيليك استقبلت في السودان استقبالا حارا حتى وصلت الى أم درمان في مايو (أيار) ١٨٩٧ .

وكان رد منيليك على رسالة الخليفة واضحا . فذكر له أنه لا توجد بينه وبين الأوروبيين آية علاقة ما عدا التجارة والتي هي ضرورية للحبشة وللسودان معا وان ايقافها سيكون أكثر ضررا للبلدين . وأعرب عن استعداده لقبول أي شروط أخرى وأنه مستعد لتقديم أي مساعدة من مال وعتاد في حالة أي غزو أوروبي ضد السودان . وجاء في رسالة منقشا ، حاكم التجراي (فالان حيث

صارت المحبة سيكون أكثر من الشر الذي فات)
وأبدى استعداده للتعاون مع الخليفة • وكتب
رأس عدار قائلا (ونحن جميعا الأثيوبيين
والسودانيين أبناء بلد واحد • وأرسلت نفرا من
توابعي لتأكيد المحبة وبعد هذا اجعل الطريق
مفتوحا لتسهيل المواصلات بيننا) • وبعث للخليفة
بحصان وبغل كعنوان لتلك المحبة • على ان تلك
البعثات الودية لم تثمر عن عقد أية معاهدة بين
البلدين • ولعل الغزو البريطاني قد شغل الخليفة
ولعله كذلك صرف منيليك عن الخليفة •

وطلب الخليفة من منيليك أن يعاونه في اخضاع
ولد توم الغوري حاكم بني شنقول الذي تمرد على
سلطة الخليفة وهو على حدود الحبشة ، فوجدها
منيليك فرصة ليزحف بحدوده غربا نحو النيل
الأزرق • كما أرسل حملة أخرى نحو النيل الابيض
الى منطقة الفاشودة التي احتلها الفرنسيون لمضايقة
الانجليز في أعالي النيل وفق سياسة التهافت
الاستعماري لتقاسم القارة الافريقية • وكانت
فرنسا قد أغدقت على منيليك مساعدات سخية
لصد الانجليز عن السودان على أن تنصبه بعد
الانتصار سلطانا على السودان تحت الحماية



العلم الانجليزي يرتفع

الفرنسية • فكتب منيليك للخليفة موضحا تلك الخطوة (أخبرك أن الأوروبيين الموجودين حــول النيل الابيض مع الانجليز قد خرجوا من الشرق والغرب وقصدوا أن يدخلوا بين بلادي وبلادك • والآن أمرت جيوشي أن يوصلوا الى النيل الابيض ولربما تسمع خبر من التجار أو غيرهم تفتكر في شيء آخر ولذلك كتبت اليك لكي تعرف القصد • وأنت من جهتك تحفظ ولا تدع الافرنج يدخلوا بيننا وتشدد لأنه اذا دخل الافرنج في وسطنا يصير تعب عظيم لنا) •

وعندما أخذت جيوش كتشنر تقترب مــن أم درمان بعث منيليك برسالتين الى الخليفة يطلب منه أن يفتح عينيه حذرا من الأوروبيين • كما أرسل له علما فرنسيا لكي يرفعه في حدوده اذا هاجمــه الانجليز دليل خضوعه للحماية الفرنسية وهو ما كان متواطئا فيه منيليك مع فرنسا ، ولكن الخليفة رفض رفع العلم واعادة محمد الطيب الى منيليك •

معركة كرري تنهي دولة المهدية
والحبشة تحتل القلابات

بمعركة كرري على ضفاف النيل بالقرب من

أم درمان بين الخليفة والانجليز في صبيحة الجمعة ٢ ديسمبر (كانـون أول) ١٨٩٨ انتهت دولـة المهدية وتساقطت حاميات الاقاليم بيد الانجليز ·

أما القلابات التي شهدت أعنف المعارك بـين السودان والحبشة فقد قامت الحبشة باحتلالهـا عندما علموا بنهاية الخليفة في أم درمان · وكتب بتودد منقشا حاكم التجراي الى القمندان الانجليزي في القضارف (لقد دخلنـا القلابات بأمر الملـك منيليك والذي يرغب في خلق علاقات حسنة معكم بغرض فتح الطريق التجـاري وانشاء علاقـات تجارية بين السودان والحبشة · وقال لي منيليك أنه لا يوجد أي شيء سوى المحبـة بين الحبشـة والانجليز) · ثم دارت مفاوضات بين الانجليز والحبشة انتهت باخلاء الحبشة للقلابات ودخلتها الجيوش الانجليزية بقيادة بارسونز في ٧ ديسمبر (كانون أول) ١٨٩٩ لتعيدها للحبشة وفق معاهدة حدودية · ولا تزال القلابات ضمن حدود الحبشة·

وقد تساهل هارنجتون ، معتمد بريطانيـا في أديس أبابا في مسألة بني شنقول اذ تركها للحبشة بالرغم من أنها كانت جزء من السودان لتشبث

منيليك بها وهي ذات الثروة بمعادن الذهب لما قدمه الامبراطور منيليك من مقابل اذ منح المستر لين مندوب شركة انجليزية امتياز استغلال تلك المنطقة ٠

علاقة السودان بالحبشة في عهد الاستقلال :

منذ أن نال السودان استقلاله في مستهل عام ١٩٥٧ حاول الزعماء السودانيون خلق علاقة طبيعية مع الحكومة الاثيوبية ٠ وكانت أثيوبيا أول بلد يزوره أول رئيس وزراء للسودان ـ اسماعيل الازهري ٠ وعندما حدث تمرد في جنوب السودان عقب الاستقلال مباشرة ساهمت أثيوبيا بادىء الامر في مساعدة الحكومة السودانية الجديدة في قمع التمرد بوضع بعض طائرات النقل الاثيوبية تحت تصرف الحكومة السودانية لنقل الجنود والمعدات والمؤن من الخرطوم الى الجنوب ٠ ولكن مع استمرار تصاعد نشاطات الحركة الانفصالية في الجنوب وتدخل قوى خارجية في دعم الانفصاليين وعلى رأسهم الكنائس العالمية واسرائيل ، مع ما لاثيوبيا من علاقات وطيدة بهذه الجهات ، تحولت أثيوبيا الى دولة مساندة للانفصاليين ، تمرر أسلحتهم عبر

أراضيها ، وتدرب المتمردين في معسكراتها مما بذر الفتور في العلاقة بين البلدين دون أن يبرز الخلاف على السطح ٠

وكانت الحكومات المتعاقبة في الخرطوم بدءاً بحكومة الاتحاديين برئاسة اسماعيل الازهري ، مرورا بحكومة حزب الأمة (الانصار) برئاسة عبد الله خليل ، ثم الحكم العسكري برئاسة الفريق ابراهيم عبود وانتهاء بعهد تحالف حزبي الأمة والاتحاد (الصادق المهدي ، محمد أحمد محجوب ، اسماعيل الازهري) ، تتخذ موقفا متحفظا تجاه أثيوبيا منعا للمزيد من التردي في العلاقات بجانب التأثيرات الخارجية ٠ فلم تتعاون تلك الحكومات مع الثورة الارترية ولو في نطاق رد الفعل على المساعدات الاثيوبية للانفصاليين الجنوبيين ، بل ان بعضها كانت تتعاون مع أثيوبيا ضد الارتريين كما حدث في عهد عبود عندما سلمت سبعة أرتريين ينتمون لحركةتحرير أرتريا الىالسلطات الاثيوبية، وكما حدث في عهد الصادق المهدي عندما صادر هدية أسلحة أرسلت لأرتريا من سوريا بموافقة حكومة سر الختم خليفة الانتقالية التي مثلت ثورة اكتوبر الشعبية عام ١٩٦٤ ــ ١٩٦٥ ٠ ويذكر أن

الثورة الارترية استفادت من الجو الديمقراطي الذي ساد السودان في فترة حكومة اكتوبر القصيرة ووجدت متنفسا اعلاميا وتعاطفا من بعض التيارات السياسية والفكرية في حكومة الائتلاف تلك ، كما استفادت سياسيا من تنافس الاحزاب السياسية السودانية على السلطة ·

وعندما قامت ثورة مايو عام ١٩٦٩ بقيادة الرئيس جعفر نميري برز التوتر في العلاقة بين السودان وأثيوبيا بسبب مناهضة أثيوبيا للنظام الجديد الذي رفع شعارات يسارية من جهة ،وبسبب تعاون أثيوبيا مع الانفصاليين الجنوبيين من جهة أخرى · ووصلت العلاقة بين البلدين ذروة السوء في عام ١٩٧٠ عندما اكتشفت الحكومة السودانية تورط أثيوبيا في حركة المعارضة السودانية التي قمعها النظام بعنف في جزيرة أبا وأدت الى مقتل زعيم الانصار ـ الامام الهادي المهدي ـ وهو فارا في طريقه الى أثيوبيا · وأصبحت أثيوبيا ملجأ للمعارضين السودانيين الشماليين من زعماء الاحزاب السياسية وأتباعهم الذين أنشئت لهم معسكرات تدريب في منطقة غندر · وظل رد الفعل السوداني حذرا ومتحفظا ولم يصل الى حد فتح باب التسهيلات

للثوار الارتريين مع التساهل تجاه تحركاتهم · ويدفعنا هذا الموقف السوداني الحذر آنذاك تجاه أثيوبيا ـ رغم سياستها العدوانية حياله ، الى التساؤل عن السبب الحقيقي لهذا التحفظ · وللاجابة على هذا التساؤل نقتبس الفقرات التالية من كتاب (سياسة السودان الخارجية) الذي كتبه وزير الخارجية الدكتور منصور خالد على شكل تقرير في عام ١٩٧٢ · فيقول حول سياسة السودان تجاه جيرانه ما يلي :

(في عصرنا هذا الراهن الذي تميز بالتقارب بين مصالح الدول والشعوب أصبحت العزلة أمرا مستحيلا ومن ثم كان على الدول أن تسعى نحو توحيد وتذويب الفوارق بينها · ولقد سار تحرك السودان الخارجي على ضوء هذه المبادىء وعمل على ترجمتها الى سياسات عملية ، خاصة في علاقاتنا مع الدول المجاورة لنا ، ومع الدول الشقيقة الأخرى في الوطن العربي وقارتنا الافريقية) ·

(وقد نبعت سياسة السودان مع جيرانه بصفة خاصة ومع دول القارة الافريقية بصفة عامة من الادراك لحقائق ثابتة عبر عنها السيد وزير

الخارجية في خطابه الذي ألقاه أمام مؤتمر الدبلوماسيين السودانيين الذي عقد بالخرطوم في يناير (كانون ثاني) ١٩٧٢) :

١ ـ ان مليونا مربعا من الاميال في قلب افريقيا لا بد أن تكون مصدر قوة للقارة تدفع حركة تحولها الثوري وتطورها الاجتماعي .

٢ ـ ان السودان يمثل أكبر عمق قاري للحضارة العربية والاسلامية في افريقيا .

٣ ـ ان السودان هو القطر الوحيد في العالم الذي تحده ثمان دول (تسعة مع أرتريا) مختلفة المزاج والتكييف ولا بد له من أن يجد صيغة للحياة معها في وئام .

٤ ـ ان السودان يحمل في أحشائه كل عناصر الوحدة والتمازج ، أو الفرقة والانشطار ، ونجاح تجربته في الوحدة الوطنية سيتوقف عليه مستقبل العلاقات بين افريقيا الشمال وافريقيا الجنوب .

(لهذا ينتهج السودان سياسة الجيرة الحسنة مع الدول التي تحده ، تلك السياسة التي تقضي

باحترام السيادة القومية للدول وعدم التدخل في شئونها • كما تقضي بتطوير العلاقات الثنائية معها في كافة المجالات) •

ولا أحد يستطيع أن يطعن في صحة هذه السياسة التي عبر عنها وزير الخارجية بعقلانية وواقعية • فأية سياسة في النهاية تستهدف تحقيق المصلحة الوطنية دون الاضرار بالآخرين • وهذه السياسة السودانية الخارجية التي عبر عنها وزير الخارجية (تؤكد ضرورة خلق أحسن العلائق بالجيران منطلقة من تجنب التوتر والنزاع المسلح سلبا على وحدتها الوطنية •

ولنا أن ننظر بالمقابل في السياسة الاثيوبية تجاه جيرانها • ومن الطبيعي أن نتوقع أن لا تختلف السياسة الاثيوبية الخارجية في جوهرها عن السياسة السودانية بالنسبة للعلاقات مع جيرانها • فأثيوبيا امبراطورية تضم شعوبا متباينة عرقيا وثقافيا ودينيا ، بعضها ألحق قسرا مثل شعوب الغالا والصومال بجانب أرتريا وهي في مجموعها تشكل الاغلبية الساحقة والمسحوقة • فيكون من المفهوم طبيعيا أن لا تثير أثيوبيا المتاعب الاقليمية وتشجع

النزعات الانفصالية في جيرانها خشية أن ينعكس ذلك على وضعها الداخلي المفكك • وأثيوبيا هي التي اقترحت تثبيت مبدأ عدم تغيير الحدود الموروثة من الاستعمار وعدم التدخل في الشئون الداخلية للغير في ميثاق منظمة الوحدة الافريقية عام ١٩٦٣ •

ولكن أثيوبيا من جهة أخرى تعيش تحت وطأة الشك التاريخي تجاه الاسلام المحيط بهضبتها كالسوار بالمعصم • ولا تنسى الحروب التي خاضتها مع الولايات الاسلامية منذ أن نشأت أول دولة اسلامية في ايفات ــ شمالي اقليم شوا في قلب الحبشة والتي عرفت بالدولة المخزومية قبل نحو ألف عام • وتوسع أثيوبيا في نهاية القرن التاسع عشر لتضم في اطارها كل الممالك الاسلامية شرقا وشمالا وجنوبا انما نبع من دافع الخوف أكثر من دافع الطمع في التوسع بحد ذاته ، الخوف من اتحاد هذه الامارات وشن حرب دينية جديدة في وقت كان الحماس الديني يدفع مهدي السودان بمطالبة أمبراطور الحبشة يوهنس وملك شوا منيليك اعلان اسلامهم او مباداتهم بالحرب ، خاصة بعد أن أعلن الأمير عبد الله بن عبد الشكور ، أمير هرر نفسه « أميرا

للمؤمنين » في عام ١٨٨٥ اثر جلاء القوات المصرية وهو العام الذي سقطت فيه الخرطوم بيد المهديين بعد مقتل الجنرال الانجليزي غوردون ·

وهرر هي التي انطلق منها الامام احمد بن ابراهيم في فتوحاته الحبشية حتى أخضع البلاد كلها لسلطانه وأجبر أهلها على اعتناق الاسلام مما دفع ملك الحبشة الطريد ـ لبنا دنقل للاستنجاد بالبرتغاليين في عام ١٥٤٣ الذين حسموا الصراع بتملكهم السلاح الناري ·

صراعها مع الاسلام جعل مسيحيتها ـ كما يقول اسبنسر ترمنجهام في كتابه (الاسلام في أثيوبيا) محورا للأسس القومية الاثيوبية وليست ديانة عامة تعتنقها شعوبا متباينة ، ومن ثم فان عزل المسيحية عن القومية يعني في مفهوم الاثيوبيين تدمير القومية الاثيوبية ، وهو مضمون يمتزج بضمائر الاثيوبيين ووجدانهم بدرجة يصعب الفصل بينهما بغض النظر عن مدى تدينهم أو عدم تدينهم · فالمسيحية في أثيوبيا لا تعني دينا بالمعنى المعروف للدين ـ مجموعة قوانين وقيم تنظيم علاقة الانسان بخالقه وعلاقاته المسلكية والخلقية مع اخوانه من بني

الانسان ، وانما تعني أيضا المحورية التي تدور حولها عجلة القومية الحبشية ومن ثم فان السياسة الاثيوبية سواء في عهد الأباطرة أو في عهدها العسكري (الثوري) الجديد تجاه غير المسيحيين من شعوبها وتجاه جيرانها في الشرق والشمال والغرب ـ الصومال ، جيبوتي ، أرتريا ، السودان ظلت تنبع من هذه النظرة التاريخية القابعة في اللاوعي أيا كانت الشعارات المعلنة ٠

وفي هذا يقول المؤرخ البريطاني باذل ديفيدسون في كتابه (افريقيا تحت أضواء جديدة) ص ٢٩١ (أعانت المسيحية أثيوبيا على خلق وعي متميز في مملكة آكسوم ومملكة الامهريين من بعد ٠ أحس القوم بكينونة مستقلة عن جيرانهم وبذاتية منفصلة عنهم ٠ وأعان هذا الاحساس بدوره على خلق قوة داخلية في نفوس الأهلين حفظت عليهم بقاءهم في وجه كل صعوبة ، وكان تحول أكسوم للنصرانية السبب الرئيسي أيضا في خوضها غمار حروب دينية عديدة ، عزلتها عزلا عن جيرانها وكانت أكثر الوقت مسلمة أو وثنية ٠ وكان من آثار هذه العزلة أن اختلفت حضارة الامهريين ، سادة أثيوبيا اليوم ، وورثة أكسوم اختلافا جوهريا عن حضارة

الوثنيين وثقافتهم في الجنوب ، وعن حضارة المسلمين وثقافتهم شمال بلادهم وشرقها ، وأقامت بذلك حاجزا سياسيا وثقافيا دون انتشار الافكار والقدرات الفنية ودون مرورها عبرها في الاقليم كله) .

ومن هنا يمكن أن نفهم دوافع السياسة الاثيوبية تجاه جيرانها ، وهي دوافع تجعلها تعمل على الحيلولة دون قيام دول اسلامية مجاورة قوية أيا كان مذهبها السياسي ـ يساري أو يميني . فناوشت الصومال منذ استقلاله وعملت لمنع وحدته الوطنية ، وحالت دون استقلال أرتريا باحتلالها احتلالا عسكريا مباشرا ، وحاولت اضعاف السودان باحتضان معارضيه سواء من أبناء الجنوب أو الشمال . بالاضافة الى منع مواطنيها المسلمين الذين يشكلون أكثر من نصف السكان من المشاركة في السلطة السياسية الى حد أنه لا تمثل نسبة اشتراكهم في الحكم ١ ٪ حتى في عهدها « الثوري » الجديد .

ومع ذلك فالحكومة الاثيوبية لم تستطع ولن تستطيع أن تتجاهل أماني الشعوب التي تحتلها بهذا المفهوم الديني ـ القومي الضيق ، وأن تمنع نجاح طموحاتها المشروعة في التحرر ونيل حق

تقرير المصير • وحروب التحرير الصومالية والأرترية والأورومية والتجراوية دليل على صحة هذا المفهوم والتي تجعل من هذه الامبراطورية كمونولث مهدد بالانقسام •

وعودة الى العلاقة السودانية ـ الاثيوبية ، اثر فشل محاولة انقلاب هاشم العطا في الخرطوم بتاريخ ١٩ يوليو (تموز) ١٩٧١ الذي قام بتدبير من الحزب الشيوعي السوداني ، تحول النظام السوداني نحو اشتراكية معتدلة داخليا وابتعد عن المحور السوفياتي واتجه نحو الدول المحافظة وحسن علاقته بالمعسكر الغربي • ويبدو أنه نتيجة لهذا التحول السياسي شجعت الولايات المتحدة الامريكية الامبراطور الاثيوبي السابق هيلي سلاسي بالعمل على تحسين علاقته بالسودان •

وتوج التقارب السوداني ـ الاثيوبي باتفاقية أديس أبابا في مارس (آذار) ١٩٧٢ حول حل مشكلة جنوب السودان والتي تم بموجبها منح الحكم الذاتي للجنوب • وكان من نتيجة عودة السلام الى ربوع الجنوب تحسن العلاقات السياسية بين السودان وأثيوبيا • كما تهيأ المناخ المناسب لتحسين

طرق النقل والمواصلات بين البلدين . ولأول مرة قام وفد فني من السودان للنظر في تدعيم الملاحة النهرية بين جنوب السودان وأثيوبيا .

وتمكن السودان أيضا من التوصل الى اتفاق مع أثيوبيا على الحدود المشتركة بين البلدين وهي أطول حدود للسودان مع جاراته وتمتد مسافة ٢٢٠٠ كيلومترا (متضمنة ٧٠٠ كيلومترا من الحدود الأرترية) . وهذه كما يقول الدكتور منصور خالد كانت مشكلة مستعصية تحكمها اتفاقيات تعود للقرن الماضي وتدخل فيها أطراف دولية متعددة . وفي اجتماعين عقدا بأديس أبابا للجنة المشتركة للحدود وللجنة الوزارية الاستشارية في ابريل (نيسان) ١٩٧٢ ويوليو (تموز) ١٩٧٢ تم التوصل الى اتفاقية الحدود سويت فيها مسألة (الفشقة) وشكلت لجنة مشتركة لتسوية قضية الاراضي المزروعة في (الفشقة) .

واثر توقيع اتفاقية أديس أبابا تعرض ثوار أرتريا الى مضايقات في السودان وأغلقت مكاتبهم وحظر عليهم أي نشاط سياسي . وكان هذا ما ترمي اليه الحكومة الاثيوبية من مساعدة السودان في حل مشكلة الجنوب .

السودان يتوسط لحل القضية الأرترية :

بسقوط النظام الامبراطوري في أثيوبيا في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٤ واعتلاء العسكر سدة الحكم وعلى رأسهم الجنرال أمان عندوم ــ الارتري الأصل ، السوداني المولد ــ بعث النظام الجديد وزير خارجيته ، جبري ولدي سلاسي (حفيد الامبراطور يوهنس الذي قتله المهدية كما سبق ذكره) ، طالبا وساطة السودان لحل القضية الأرترية • ومن ثم وجه السودان دعوة لقادة الثورة الارترية ، واستجاب لطلبهم بفتح مكاتب لهم في السودان حتى تتم سهولة الاتصال بالحكومة السودانية وحتى يكون للسودان تأثير على الطرفين بصفة متوازنة •

كان هدف السودان من التوسط هو حل القضية الأرترية في اطار الحكم الذاتي في مائدة مفاوضات مباشرة بين الارتريين والاثيوبيين في الخرطوم على غرار ما تم في أديس أبابا بالنسبة لجنوب السودان• وبذلك يحقق السلام والاستقرار في حدوده الشرقية ويمنع تدخل قوى خارجية كبرى في الصراع يجر المنطقة الى حروب مدمرة • وكانت هوية نظام

الحكم الجديد في أثيوبيا لم تتبلور بعد . وكــان الجنرال أمان عندوم يجد تعاطفا أمريكيا كما كانت شعاراته وطنيــة بحتــة بل ومتطرفة في الوطنية (أثيوبيا تقدم) أي (أثيوبيا أولا) ولم يتورط في سفك الدماء وعرفت الثورة (بالثورة البيضاء) .

وسرعان ما فجع العالم بمجزرة قام بها النظام فجأة لرجال العهد السابق شملت الجنرال عندوم نفسه الذي عرف بالاعتدال . وتوالت بعدها المجازر لأتباع اليمين واليسار على حد سواء بعد أن هيمن منجستو هيلي ماريام على زمام السلطة في عــام ١٩٧٥ متخذا من الجنرال تفري بانتي رئيســا صوريا ليعدمه فيما بعد . واتجه النظام نحو اليسار بصفة حادة وعقد اتفاقيات عسكرية مع الاتحــاد السوفياتي بموجبهــا يتغير التسليح الأوروبي الى تسليح روسي للجيش الاثيوبي .

ورغم هذا التحول فان النظام الاثيوبي ظل على علاقة حسنة بالدول الغربية وعلى رأسها أمريكا التي عاشت تحــت الوهــم التاريخي بأن أثيوبيا جزيرة مسيحية محاطة ببحر اسلامي معادي هذا فضلا عن التأييد الاسرائيلي والصهيوني ونفوذه

المعروف في الغرب • كما ظل النظام الاثيوبي على اتصال بالحكومة السودانية طالبا وساطتها مع الشك المتزايد في النوايا السودانية بعد أن قدمت الحكومة السودانية تسهيلات بتمرير السلاح لأرتريا مما مكن الثورة الارترية من تصعيد عملياتها القتالية بالاضافة الى مواجهته لنشاطات عسكرية متعددة من مختلف أحزاب المعارضة والقوميات •

وكانت المشكلة الأساسية أمام المفاوضات الأرترية ـ الاثيوبية تعدد الفصائل الارترية وانعدام الوحدة بينها • ومن ثم حاولت الحكومة السودانية أن توفق بين القادة الأرتريين ، فكانت اتفاقية الخرطوم بين المجلس الثوري لجبهة التحرير الارترية وقوات التحرير الشعبية لجبهة التحرير الارترية في سبتمبر (أيلول) ١٩٧٥ • غير ان هذه الاتفاقية لم تنجح لخروج جزء من قوات التحرير الشعبية عنها بقيادة اساياس افورقى ، انعكاسا للتركيبة الطائفية الارترية • فأرتريا مثل الامبراطورية الاثيوبية لم تخضع بحدودها الجغرافية الراهنة لحكم مركزي الا بعد الاحتلال الايطالي في نهاية القرن التاسع عشر اذ كانت أجزاؤها الغربية والشمالية تتبع ممالك السودان ،

والجنوبية سلطنة أوسا ، والشرقية تتبع الحكومة التركية العثمانية وهضبتها كانت تخضع لنفوذ رؤوس التجراي . وأعلن اسياس افورقي قيام تنظيم ثالث باسم (الجبهة الشعبية لتحرير أرتريا) ولم تسفر المساعي السودانية لتوحيد الفصائل الأرترية عن نتائج ايجابية .

وعلى الرغم من صدق النوايا السودانية تجاه أثيوبيا ، فان التسهيلات التي قدمها السودان للثورة الارترية بغية التأثير عليها لقبول حل وسط أقل من الاستقلال (الامر الذي يرفضه الارتريون) فان الحكومة الاثيوبية التي كانت تعاني اضطرابات داخلية حادة طيلة عام ١٩٧٦ قد تصرفت برد فعل عنيف حيال السودان . فحاولت اثارة الاضطراب في جنوب السودان مستغلة سوء علاقة السودان ببعض الدول العربية . وتسربت بعض الاسلحة وبعض الرجال بما فيهم قائد الانقلاب العميد محمد نور سيد الذين قاموا بمحاولة الانقلاب في يوليو (تموز) ١٩٧٦ والتي سمته الحكومة السودانية غزوا أجنبيا واتهمت فيه أثيوبيا وليبيا ، تسربوا من أثيوبيا عن طريق الحومرة والقلابات ، وفشلت المحاولة بعد أن راح ضحيتها مئات السودانيين

قتلى . وأعلن الرئيس نميري في مستهل عام ١٩٧٧ في مدينة القضارف القريبة من الحدود الاثيوبية ان السودان لن يتساهل تجاه أثيوبيا وأنه يؤيد حق الشعب الارتري في تقرير مصيره . ويصدر هذا الاعلان لأول مرة من مسئول سوداني كبير .

وفتح السودان أبواب بلاده لكل من يشق عصا الطاعة على النظام الاثيوبي الذي أعلن عن ماركسية سافرة والارتباط الاستراتيجي بالمعسكر الشيوعي . فانطلقت فصائل الثورة الارترية تتحرك بحرية مطلقة في الاراضي السودانية وكذلك الاثيوبية بمختلف فصائلها ومنها : (١) الاتحاد الديمقراطي الاثيوبي (اليميني) بزعامة الجنرالين اياسو منجشا ونقا تجانيي والرأس منقشا سيوم (حفيد الامبراطور يوهنس) ، واحتل هذا التنظيم الحومرة والمتما (والاخيرة ضاحية من ضواحي مدينة القلابات الشهيرة في الصراع السوداني ـ الاثيوبي في نهاية القرن التاسع عشر) ، وكرر فيها التاريخ نفسه . (٢) حزب الشعب الثوري الاثيوبي (يساري) . (٣) الجبهة الشعبية لتحرير تجراي (يسارية) .

ومنح السودان ركنا اذاعيا للثورة الارترية من اذاعة أم درمان ، كما منح ركنا اذاعيا للاتحاد الديمقراطي الاثيوبي . وبالمقابل فتحت أثيوبيا أبواب اذاعتها للمعارضة السودانية وبالأخص للشريف الهندي يهاجم النظام ويدعو الى اسقاطه .

وحاول الرئيس نميري شخصيا ادراج القضية الأرترية في جدول أعمال مؤتمر القمة الافريقي الذي عقد في الخرطوم في يوليو (تموز ١٩٧٨ ، غير ان المعارضة الافريقية المتمسكة بعدم تغيير الحدود أجهضت هذا المسعى وقررت لجنة وساطة افريقية تبحث حل القضايا العالقة بين السودان وأثيوبيا) .

وفي منتصف عام ١٩٧٨ بدأت الاعمال الحربية تميل لصالح أثيوبيا اثر التدخل العسكري الكوبي بتخطيط سوفياتي وخروج الجيش الصومالي من منطقة أوغادين . وتمكنت القوات الاثيوبية من استعادة مدينتي المتما والحومرة من الاتحاد الديمقراطي الاثيوبي بعد أن سادت الخلافات قيادة هذا التنظيم الهش مع افتقاره للدعم المادي والسياسي الخارجي من دول الغرب أو غيرها والتي

ظلت متمسكة بما أسمته بوحـدة أثيوبيا بصرف النظر عن هوية النظام ·

وسقطت المدن الأرترية بأيدي القوات الاثيوبية بعد أن كانت فصائل الثورة قد حررتها · ولعبت القوات الكوبية واليمنية الجنوبية والخبراء الروس والالمان الشرقيين دورا كبيرا في هذا النصر الاثيوبي · ويجدر بالذكر ان القوات الخارجية كانت تلعب على مر التاريخ دورا أساسيا في « انقاذ » مملكة الحبشة وحمـاية توسعها الاقليمي على حسـاب جيرانها ·

وتتحمل القيادات الأرترية المتشنجة وبالأخص اسياس افورقي ، زعيم الجبهة الشعبية لتحريـر أرتريا المسئولية الاساسية في تعويق اعلان الاستقلال في الوقت المناسب برفضه العنيد للوحدة الوطنيـة الأرترية · وحسب معلومات صحيحة فان آثيوبيـا التي كانت تعيش في حالة فوضى داخلية كانت على استعداد لقبول استقلال أرتريا مع ضمان مرفأ لها في البحر الاحمر ·

وخلال عامي ١٩٧٧ و١٩٧٨ توصلت الحكومة السودانية الى اتفاق مع زعماء المعارضة السودانيين

وبالأخص الانصار بزعامة السيد الصادق المهدي والاخوان المسلمون بزعامة الدكتور حسن الترابي. وبدأ الانصار يعودون من أثيوبيا الى السودان. ويلاحظ أن الأسرة المهدية تميل الى اقامة علاقات طيبة مع أثيوبيا. وربما يعود ذلك الى تجربتها الحربية مع الحبشة وان الصراع المسلح لا يؤدي الا الى المزيد من الانهاك الاقتصادي لكلا البلدين الفقيرين. وقد أقام زعيم الانصار السيد عبد الرحمن المهدي علاقة طيبة مع أمبراطور أثيوبيا السابق، هيلي سلاسي حيث استضافه في منزله بأم درمان عندما كان لاجئا يتأهب لحرب الانجليز لاستعادة عرشه من الطليان في عام ١٩٤١.

ولعل عودة السيد الصادق المهدي للخرطوم ودخوله في الحكم كعضو في المكتب السياسي للحزب الاشتراكي السوداني الحاكم كان له تأثيره في توجه الحكم نحو المصالحة مع أثيوبيا بجانب العوامل الحربية التي طرأت في الساحة الارترية والاثيوبية والصومالية والعوامل السياسية الخارجية ورفض دول الغرب في التورط في نزاع القرن الافريقي بتسليح السودان والصومال في مواجهة التسليح السوفياتي الهائل لأثيوبيا.

قبل نهاية عام ١٩٧٨ بدأت الوفود تتنقل بين العاصمتين ـ الخرطوم وأديس أبابا بغية تحسين العلاقة • ونتيجة لذلك توقفت الحملات الاعلامية المتبادلة بين البلدين وأعيد سفيرا البلدين الى مقري عملهما • وفي فبراير (شباط) ١٩٧٩ اجتمع الرئيس السوداني المشير جعفر محمد نميري بالرئيس الاثيوبي المقدم منجستو هيلي ماريام في فري تاون ، عاصمة سيراليون حيث كان رئيسها استيفن سياكا يترأس لجنة المصالحة الافريقية • ولم يتوصل الطرفان الى اتفاق بسبب رفض الرئيس الاثيوبي الحديث عن المشكلة الارترية التي اعتبرها مشكلة داخلية أثيوبية وطالب السودان بالكف عن التدخل في شئون أثيوبيا الداخلية في حين أصر الرئيس نميري على وضع المشكلة الارترية على رأس جدول المحادثات باعتبارها مشكلة قائمة يعاني منها السودان أمنيا واقتصاديا ويتحمل من جرائها استضافة نصف مليون لاجيء أرتري • وانتهى اللقاء الى الفشل •

ومع ذلك استمرت الاتصالات بين البلدين حتى توجت بزيارة النائب الاول لرئيس الجمهورية السودانية ووزير الدفاع الفريق عبد الماجد خليل

لاثيوبيا في مارس (آذار) ١٩٨٠ ، وزيارة منجستو هيلي ماريام للخرطوم في مـايو (أيار) ١٩٨٠ بمناسبة الذكرى الحادية عشر لثورة السودان ، حيث عدد بكبرياء أخطاء السودان تجاه أثيوبيا في خطابه الرسمي ولكنه قال أنه لم يأت بنوايا ثأرية ٠ وأعلنت خلال الزيارتين بيانات مشتركة تؤكد عدم التدخل في الشئون الداخلية للغير واحترام السيادة والوحدة الاقليمية لكل من البلدين وانعاش التجارة والتبادل الثقافي ٠٠٠ الخ ولم يأت ذكر للمشكلة الأرترية التي تمثـل لب الخـلاف السـوداني ـ الاثيوبي ، ولو ان مصـادر مطلعـة أفـادت بأن المحادثات السرية تناولت القضية الارترية وانـه على ضوء ذلك أعلن الرئيس نميري وساطته بين ثوار أرتريا والحكومة الاثيوبية للوصول الى حل سياسي في اطار أثيوبيا ٠

الخـلاصـة :

منطقـة القرن الافريقي اليوم تمثل احـدى المناطق الملتهبة في العالم ٠ ففي أرضها بدءا من حدود كينيا وانتهاء بحدود السودان يجري صراع دام يعكس التمايز الحضاري والثقافي والدينـي

والعرقي للأمم التي تعيش فوق هذه الارض ، تزهق فيها الارواح في حروب طاحنة ويفر بجلده من يستطيع الفرار لاجئا يعيش على الصدقات وأرضه الغنية وراءه لا زرع ولا ضرع ، يضيع صوت الحوار وسط هدير صوت المدفع · والسودان الذي هو ليس ببعيد عن منطقة القرن الافريقي أرضا وشعبا وحضارة من الطبيعي أن يخف لدعوة الاطراف المعنية:سواء أكانت الارترية أو الصومالية أو الاثيوبية بمختلف أطرافها لتعالج مشاكلها بروح المسئولية وروح الاخاء والجوار متناسية عداوات الماضي وصراعات الحاضر وذيولها السلبية ·

ولكن اذا تركنا العواطف والنيات الصالحة جانبا ونظرنا الى الأمور بمنظار عملي ، هل نجد في أرضية الواقع بصيصا يضيء لنا سبل الحلول المرضية سلميا لمشاكل المنطقة المعقدة ؟ وهل يمكن للسودان عمليا أن ينأى بنفسه عن مشاكل القرن الافريقي ويكتفي بالنصائح وكفى الله المؤمنين شر القتال ؟

في عصر الطائرات النفاثة والصواريخ العابرة للقارات والاقمار الصناعية التي تجوب أرجاء

الفضاء وحيث أصبح الكوكب الارضي كقرية واحدة ، فانه من المتعذر أن ينأى بلد ما عن مشاكل بلدان أخرى ، البعيدة منها فضلا عن القريبة والمجاورة ·

وإذا ما نظرنا الى الاسباب الكامنة وراء صراعات القرن الافريقي نجدها لا تتعدى الرفض الحبشي المطلق للحضارة العربية الاسلامية التي عم انتشارها كافة السهول المحيطة بالهضبة الحبشية العالية ومحاولة محقها من المنطقة و (تمهير) ـ جعلها أمهرية ـ شعوبها ـ اذابتها في الكيان الحبشي أو طاردهم من ديارهم · وفي هذا يقول ترمنجهام (الاسلام في أثيوبيا) « ان ملوك الحبشة اعتبروا الحبشة والمسيحية صنوان لا يفترقان ولذلك جعلوا همهم استعمال القوة في اجبار المسلمين والوثنيين والفالاشا اليهود على اعتناق المسيحية » · ويذكر فتحي غيث في كتابه (الاسلام والحبشة عبر التاريخ) : « ان ملوك الحبشة استباحوا لأنفسهم اضطهاد المسلمين في وقت كانوا يرسلون الرسائل المعسولة التي تفيض خضوعا لسلاطين مصر مشيدين ومتعهدين على التسامح وحسن الجوار » ·

سياسة « الامبراطور » منجستو هلي ماريام تجاه الحضارة العربية الاسلامية ووجودها المؤسس هناك منذ ألف عام ، لا تختلف في جوهرها عن سياسة الأباطرة السابقين وان اختلفت في المظهر ولبست لبوس العلمانية والماركسية واختلف الحلفاء (من قبل البرتغال والانجليز والفرنسيين والطليان) واليوم الروس باسم الماركسية • وخير شاهد على هذه السياسة برنامج محو الأمية الذي يفرض على جميع شعوب الامبراطورية وهي اللغة التي تمثل الثقافة الحبشية المسيحية ولا تتعدى نسبة المتكلمين بها ٢٠ ٪ من مجموع السكان مع منع ما عداها من اللغات والمدارس •

ونصل منها الى الاستنتاج الطبيعي وهو ان صراع القرن الافريقي لا يمكن أن ينتهي الى خاتمة سعيدة الا اذا اعترفت الحكومة الاثيوبية ـ أيا كان مذهبها السياسي والفكري ـ بالتعايش الحقيقي مع الحضارة العربية الاسلامية في هذه المنطقة مع كل ما يقتضيه التعايش من اعتراف كامل بالحقوق الطبيعية لهذه الشعوب التي تتخذ من الحضارة العربية الاسلامية أساسا لوجودها • ولا نظن ان الدولة الامهرية الاثيوبية ستتخلى طواعية عن

سياساتهـا الموروثـة عبر القرون الا اذا أحست باستحالة الاستمرار في سياستها التقليدية الخاطئة من خلال النضال المرير الذي تخوضه شعوب القرن الافريقي المضطهدة مدعومة من كل القوى المحبـة للعدل والحرية ·

السودان الذي تشكل الحضارة العربية الاسلامية أساس كيانه القومي لا يمكنه عمليا أن يتخلى عن تأييد هذه الحضـارة وسط شعوب هـي امتداده الثقافي ـ هذا الامتداد الذي يجعلها تلجأ اليه ألوفا مؤلفة بحثا عن مأمن لذاتيتها وخصائصها المميزة ·

ان البيانـات المشتركـة المصوغـة بعبـارات دبلوماسية رقيقة لا تحل قضايا الشعوب ما لم تكن تعبيرا صادقا وصحيحا لحلول واقعية · وأثيوبيا اليوم التي تتزلف للعالم العربي وبالأخص للسودان، هي نفس أثيوبيـا التي تزلفت لسلاطين مصر في مختلف العصور مـن أجل كسب سكوتهـم علـى جرائمها ·

ومن هذا فاننا لا نتنبأ بتحسن حقيقي للعلاقة السودانية ـ الاثيوبية طالما ظلت أثيوبيا معاديـة

للعروبة والاسلام في منطقة القرن الافريقي · ان أثيوبيا وهي تحاول أن تظهر بمظهر الضحية انما تمثل دور الذئب الذي افترس الحمل لأنه عكر عليه الماء ·

وعامل آخر لا يمنح الوفاق السوداني - الاثيوبي عمرا مديدا هو سياسة الانحياز التي تتبعها أثيوبيا للمعسكر الشيوعي بزعامة الاتحاد السوفياتي ، هذا العملاق الجبار الذي يسعى لفرض هيمنته ونفوذه في جميع بقاع الدنيا بمختلف الوسائل وشتى الأساليب بما في ذلك أسلوب (العنف المسلح) · ومن العسير على السودان أن يقف متفرجا بينما نفوذ دولة شيوعية كبرى يتمركز على أبواب بلاده متحفزا للانقضاض عليه في اللحظة المناسبة تحت شعار التضامن الأممي والتلاحم العقائدي ·

· اننا لا ندعو الى الحروب وسفك الدماء ، بل يهمنا كثيرنا من أمم الارض أن ننعم بالسلام ونطور قدراتنا الانتاجية لخير ورفاهية شعبنا وشعوب الدنيا كلها · ولكننا لا نستطيع أن نخدع أنفسنا بشعارات السلام فيما ينفذ خصمنا سياسة الابادة والتقتيل لشعبنا في أرتريا وبقية الشعوب المضطهدة

في الامبراطورية الاثيوبية التي تربطنا بها أواصر متينة لا نستطيع فصمها ٠

ان سياسة التوسع والاحتواء التي انتهجتها مملكة الحبشة منذ نهاية القرن التاسع عشر تحت قيادة الامبراطور منيليك وبالتواطىء مع الدول الاستعمارية الأوروبية هي التي أوجدت حالة الحروب والقلاقل في هذه المنطقة من القارة الافريقية ٠ وقد انحسر الاستعمار الأوروبي عن القارة الافريقية وعلى هذه الدولة الافريقية التي شاركت الامبريالية الأوروبية تقاسم افريقيا في مؤتمر برلين عام ١٨٨٦ أن تضع حدا لهذه السياسة الخاطئة التي تزرع الشوك في المنطقة وتوقظ الفتنة ٠

نص الرسائل التاريخية
المتبادلة بين المهديـــة
وحكـــام الحبشـــة
وتقرير أبو عنجة الى الخليفة
عن واقعة عنـــدر

تقرير حمدان للخليفة عن واقعة غندر

" وبعد فمن العبد الحقير ذو العجز والتقصير حمدان ابي عنجة الى محي الدين ومدمر الكافرين وسفينة المؤمنين الموصلة لرب العالمين سيدي وسندي الى الله خليفة المهدي " عم " الخليفة عبد الله ابن محمد خليفة الصديق " رضيه " وارضاه ونفعنا ببركته وانفسح في ايامه واهلك اعداء الدين بماضي حسامه آمين .. سبق فاخبرنا السيادة انه صار قيامنا على بركة الله تعالى من القلابات الاثنين في ٢٤ ربيع الاخر سنة ١٣٠٥ ... فبعد مضي ثلاثة ايام من قيامنا تناولنا اطراف دار العدو من جهة علفه فمر بعض الانصار بشجرة ذات ثمر يؤكل ولكنها في ارتفاع عظيم وكانوا جياعا فحاروا لا يدركون كيف يقتطفون ثمرها وبينما هم كذلك اذ بها تدانت لهم باذن الله تعالى الى الارض بكليتها فاكلوا جميعا وشبعوا وحمدوا مولاهم على تلك الكرامة في الدين والانصار المذكورون هم من جماعة الاخ علي قايت وقد قابلونا وقصوا علينا القصة . وفي اليوم التالي اتى جماعة من الاخوان الرزيقات جماعة عيسى عبد الله على شجرة بحذاء كنيسة الكفرة بالجهة المذكورة فتسلقها ثلاثة منهم وجعلوا يأكلون فسألهم الباقون ان يناولوهم من طلعها فلم يعطوهم كفايتهم فما شعروا الا والشجرة قد لوت الى الارض فاكلوا وشبعوا .. هذا ولما تم لنا في المسير تسعة ايام وصلنا دمبيا محل الكافر عدو الله النقس راس عدار (وهو الذي صار ملكا على كوجام باسم تقله هيمنوت) فالتقتنا طلائعه الفرسان في اول البلاد فهزمناهم

وقتلنا منهم مواستطردنا السير بقية يومنا الى الاصفرار فنزلنا قريبا من ديم اعداء الله . . . ولما طلع فجر اليوم العاشر من خروجنا من القلابات توضأنا على حالتنا المعهودة ورتبنا حزب الرحمن من الاسلحة والخيول بحسب ما يسره الله لنا من علمه وقمنا بعد صلاة الصبح على بركة الله تعالى قاصدين ملاقاة حزب الشيطان وعلينا من الله السكينة والوقار لا نؤمل الا لقاء الله ونصرة الدين فلما اشرقت الشمس قبل وصولنا لاعداء الله اخرج الله تعالى نورا عظيما ساطعا تجاه الشمس من جهة بحر هناك يقال له « بحر ابيض » وعندما شاهدناه استبشرنا وخررنا من ظهور الركائب سجدا لله تعالى على اسداء النعمة وفعل كذلك جميع الاخوان الذين معنا . . ولما تراءينا مع اعداء الله الكفرة اذا هم من كثرتهم لا اول لهم يعرف ولا اخر يوصف فابتدرونا بمدافعهم الاربعة بمسافة لا يصلها الرمنتون لزعمهم اننا نقف مكاننا ونناوشهم مناوشة ومـا زالوا كذلك ونحن زاحفون زحفا عليهم حتى اطلقوا علينا ١٦ قنبلة ثم شرعوا بضرب السلاح . وهذا كله والاخوان زاحفون عليهم يسبق بعضهم بعضا اقداما بلا احجام طمعا فيما ينالونه من نفحات العزيز العلام . ولم نأذن لهم بالضرب الى ان تحققنا بأن السلاح قد فرغ من اعداء الله فعند ذلك شرعنا في ضربهم بغاية الحزم وشدة العزم مع الزحف عليهم فما كانت لهم ساعة الا زلزل الله اقدامهم والحق الرعب في قلوبهم وانكشفوا عن وجوهنا مسرعين مرتكبين عار الفرار ذاهلين عن كل ما لهم من ذراري ونساء وخيول وبغال وحمير وخدم وحشم ونحو ذلك . هذا كله والاخوان الصادقون يسمعون صوت الام بأية تضرب في وقت اشتداد الحرب . وبعد انكشاف الاعداء اقتفينا اثرهم طعنا وضربا واسرا حتى اضطر الذين امامنا الى ان رموا بأنفسهم في النهر المذكور وكانوا يزيدون عن الف نفس من ذكر وانثى فمات اكثرهم غرقى . وما رجعنا عن مطاردتهم الا بعد الساعة العاشرة من النهار ووجدنا الهالكين من اعداء الله الوفا مؤلفة لا يحصى عددهم الا الذي اراد هلاكهم ولم يفز بلقاء الله من الانصار الا نفر قليل كما يرى في الورقة الاخرى طيه . هذا وجميع الغنائم مع المدافع الاربعة وبعض السلاح الذي تيسر جمعه والخيول والبغال وغير ذلك اخذناه بفضل الله تعالى بلا منازع ولا معارض لان الكفار تركوا الديم كما هو . وقد اعلمنا

نقاد رأس صابون من ثقاة مسلمي الجبرته الذي شهد معهم الواقعة وسلم بالفرار له عدد الكفار مائتين واربعين الفا بلا نقصان منها خاصة اهل الحربة والدرقة والسيف مائتين الف وخاصة السلاح الرمتتون اثنا عشر الفا والاجناس ثمانية الاف والخيول عشرون الفا والمدافع اربعة . واهل الديار التي تجمعت معهم لحربنا هم هام واجتر وعلته وطماقسة ودمبيا وقندر وشقلته وشلمة وام بجارة وارمجوه وغيرهم من عامة الديار . وقد هلك اكثر البطارقة والرؤوس ومن جملتهم الشتي دجاج كاسة قائد جميع الجيش بعد الشقي رأس عدار الذي حصلت على يده وقعة القلابات . وهذه ثلاثة رؤوس مع رائعه وهم دجاج كاسة عقيد الحربة وبزابة بن الشقي رأس عدار وقداري يقرا عقيد السلاح وكان جملة من يقال له دجاج ستة عشر ومع كل دجاج خمسة عشر الفا اعني كل واحد صاحب جهة ونقارة وما ارسلنا هذه الرؤوس الثلاثة الا لشهرة اربابها . ومن جملة الاسارى لدينا اولاد الشقي رأس عدار ذكورا واناثا مع حرم واولاد الرؤوس المفسدين بما فيهم بعض حرم وابناء عدو الله المخذول شنقة وغيره .

« هذا ولما خلت الدار من الكفار وانتنت رائحة الديم من جيف اعداء الله ورمم بهائمهم انتقلنا على بركة الله تعالى طالبين قندر ام مدائنهم يوم السبت في ٧ جمادي الاولى وقبل وصولنا اليها قابلنا اهل الديار المذكورة اعلاه راغبين الامان ورافعين الرايات البيض وفي ايدي البعض الاغصان الخضراء ثم لما قربنا اليها قابلنا جميع كبرائها من مسلمي الجبرته بالطاعة والاذعان طالبين الامان فأمناهم. وبعض المكاتبات التي قابلتنا منهم بالطريق ها هي واصلة طي هذا. وجميع الكفار الساكنين بها ولوا مدبرين فدخلنا يوم الاثنين وجلنا فيها يمينا وشمالا فأعجبنا بما شاهدناه من القصور الشامخات واحرقنا فيها ٤٥ كنيسة ما عدا الكنائس التي احرقناها بالديار المذكورة عند مرورنا بها وهي تزيد على ٢٠٠ كنيسة . فلما لم نجد بالمدينة المذكورة الا المسلمين من الجبرته (وكانوا نحو ٢٠٠٠) ولم نعلم جهة للعدو فلزيادة اشتياقنا لمخاطبات السيادة لانقطاعها عنا مدة غزوتنا هذه وايفاء بوعدنا السابق للسيادة عن تعجيل الاوبة قمنا منها ومعنا جمع من الجبرته بأموالهم واولادهم مهاجرين لله

والغنائم المتقدم*ذكرها انفا . وسيتم وصولنا الى القلابات غدا ان شاء الله تعالى . ولعلمنا بأن الافكار الشريفة متعلقة بنا قد بادرنا بتحرير هذا في ١٥ جمادي الاولى سنة ١٣٠٥هـ ٢٩ يناير سنة ١٨٨٨م .

« تحشبة ، استقر ومع الرؤوس الثلاثـلا راس رابـع وهو راس شيخ عموم القالة المدعو « اسوري فلا » كان بالعام الماضي شاهدا معهم وقعة العامل ابن ارباب » آه .

غزوة حمدان الثانية للحبشة : واقام ابو عنجة في القلابات نحو اربعة اشهر ثم « تاقت نفسه الى غزوة اخرى للحبشة فخرج في ٧ شوال سنة ١٣٠٥هـ ١٧ يونيو سنة ١٨٨٨م بطريق علفة وبعد ثمانية ايام من خروجه وصل محلا يدعى تنكل فوضع الديم فيـه وارسل البعوث يمينا وشمالا فلم يجد احدا على محاربته وبلغه ان في ام بشارة رئيسا يدعى دجاج مششه قد جمع له فقصده ففر من وجهه فرجع الى تنكل . وفي رجوعه مر بدير عظيم في جزيرة مـن جزائر « بحر ابيض » فأمر الزاكي طمل وعبد الله ابراهيم فأحرقاه وقتلا من وجدا فيه من الرهبان والقسس ورجعا اليه فعاد الـى القلابات فدخلها في ٧ ومن الحجة سنة ١٣٠٥هـ ١٥ اغسطوس سنة ١٨٨٨ » .

رسالة يوحنا طالبا للصلح

كتاب الملك يوحنا الى ابي عنجة في طلب الصلح : وكان الملك يوحنا في هذه الاثناء منشغلا بالطليان الذين احتلوا مصوع وقد خشي على بلاده منهم فراى ان يعقد مع الدراويش صلحا ليتفرغ للطليان فكتب الى ابي عنجة كتابا بالحبشية والعربية يدعوه الى الصلح بما نصـه :

« نقش خاتمه : ملك الملوك يوحنا ملـك صهيون الصليـب بالحبشة غلب امة اسماعيل . رسالة من المؤيد من الله يوحنا ملك صهيون ملك ملوك الحبشة ـ تصل الى المعظم دجاج ابي عنجة .

اول سؤالنا عن صحتك وسلامتك عسى ان تكون بخير وعافية . نحن الان مع جميع الجيوش والامراء والوزراء بخير بمعونة اللـه والاولياء الابرار لله العظمة والحمد دائما لان رحمته دائمة الـى الابد . قبل تاريخه بخمس عشرة سنة حكم الترك بلادكم الى حدود المتمة . وقد ارادوا ان يحكموا بلاد التفري فاتوا بطريق مصـوع ودخلوا بلاد حماسين فحاربناهم واعطانا الله القوة فظفرنا بهـم وهزمناهم مرتين . وبعد ذلك فيما نحن في مدينة اسمرة حاكمين الاسلام بالايمان المسيحي كتب الينا المهدي كتابا يأمرنا بالدخول في دين الاسلام فغضبنا وارسلنا « حربة » الى مدينة المتمة فاهلكت من الخلائق عددا جزيلا . ثم حضرتم انتم الى بلاد غمبيا وحاربتم وغلبتم من غلبتموه وبهذا السبب هلكت المساكين . والان فاذا انا حضرت الى بلادكم واهلكت المساكين ثم جئتم انتم واهلكتم المساكين فما الفائدة من ذلك . ونحن ليس لنا ارادة على التعدي من حدودنا بل نحن وانتم نكون ساكتين جلوسا ببلادنا فلا تهلك المساكين في الباطل . والواقع ان الافرنج اعداء لنا ولكم فاذا غلبونا وهزمونا لم يتركوكم بل اخربوا دياركم واذا غلبوكم وكسروكم فعلوا بنا كذلك . فالراي الصواب ان نتفق عليهم ونحاربهم ونغلبهم ويتردد التجار من اهل بلادنا بالمتاجر الى بلادكم وكذلك تجار بلادكم تتردد الى غندر لاجل المعايش والمكاسب لاهلكم واهلنا . فاذا صار كذلـك فهو غاية المنفعة لنا ولكم لانكم انتم ونحن في الاصول السابقة اولاد جد واحد فاذا قاتلنا بعضنا بعضا فماذا نستفيد فالافضل والاصوب لنا ولكم ان نكون ثابتين في المحبة جسدا واحدا وشخصا واحـدا متفقين بعضنا مع بعض ومتشاورين بالمشورة الواحدة ضد اولئك الذين يحضرون من بلاد الافرنج والترك وغيرهم الذين يريدون ان يحكموا بلادكم وبلادنا لكم ولنا اولئك اعداؤكم واعداؤنا نحاربهـم ونهينهم ونحرس حدود بلادنا وممالكنا منهم . هذه هـي مشورتنا العظمى لمن يسمع وينظر فيفرح ويبتهج . وايضا قبل تاريخه بنحو خمس سنوات ونحن في امباجاره طلب الطليان التوجه الى سنهيت وكسلا وطلبوا منا خبر السكة والمعاونة قائلين لنا الانكليز من هناك ونحن معكم من هنا نحارب الدراويش ونهلكهم فمنعتهم من ذلك وما مكنتهم من شيء وقلت لهم أليس الناس ناسي وهم بلاد واحدة معنا وحبشة واحدة فمنعتهم من ذلك منعا باتا ولهذا السبب صـارت

العداوة معهم الى الان فليكن ذلك معلوما لديكم. في ١٧ كيهك سنة ١٨٨١ مسيحية او ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٨م .

جواب ابي عنجة للملك يوحنا

فأجابه حمدان ابو عنجة بكتاب فظ هذا نصه :

« وبعد فمن عبد ربه قائد جيوش الاسلام لتدمير الكفرة اللئام

حمدان ابي عنجة الى يوحنا بالحبشة . انه لقد وصلنا جوابك عربيا وعجميا تاريخه ١٧ كيهك سنة ١٨٨١ مسيحية وفيه تعرفنا بملك الترك سابقا لبلادنا الى حدود المتمة وما قد حصل لهم فيما بعد . وانهم لما ارادوا الدخول في بلادك منعتهم منها وهزمتهم مرتين . وان سيدنا الامام المهدي « عم » ارسل اليك جوابا يدعوك فيه الى الاسلام فغضبت وأرسلت الى المتمة من حاربها وكان ما كان من امر الله ثم توجهنا نحن الى بلادك وكان ما قد كان بأرض دمبيا وعلى ان يقف كلا منها على حدة وينعقد الصلح بيننا ويكف الحرب ونكون اخوانا واعوانا على من يقصدنا من دول الافرنج والانكليز وان يتردد بيننا وبينكم التجار بمتاجرهم فذلك الذي رايتموه صوابا ولعدم الثمرة في المحاربات وهلاك المساكين الى اخر ما عددته لنفسك من المزايا والتظاهرات الباطلة فهمناه وهنا سأوضح لك ما ظهر لمهدينا «عم» من الكرامات وخوارق العادات فلعلك ان عقلتها تكون لك اكبر عورة ثم عدد له الوقائع التي فاز بها المهدي وخليفته من بعده وقال : وما غضبك من جواب سيدنا المهدي « عم » فهو من اعظم الشقاء عليك ولقد رايت ما حل بمن جاء الى المتمة انتقاما من عند الله تعالى فاذا لم تعتبر به فستكون انت ان شاء الله عبرة لغيرك. وما كان بالمتمة سابقا الا التكارير الذين يحرثون الارض ويستعملون القطن ولكنها الان امتلأت ليوثا ضوارى يقاوم الواحد منهم عشرة من الكفار وجميعهم بايعوا الله ورسوله ومهديه وخليفته من بعده عهدا وثيقا على الموت في سبيل الله ابتغاء وجهه الكريم فان لم تعرفهم فستعرفهم غدا فانه ما جاء بهم الى هذه الجهة حب مال ولا جاه بل جاءوا لتطع دابرك وجميع الكفار فانتبه من الغفلة واصح من النومة وفق من السكرة ولا تغرنك جموع الشيطان التي لم تغن عنك من الله شيئا وفيما سبق عبرة لاولي الالباب . فاما نداؤك

لي في صدر الجواب بقولك دجاج ابو عنجة فاعلم اني لست بدجاج وانما انت الدجاج لكفرك وتماديك على غضب باريك . واما طلبك الصلح منا وانت باق على كفرك فبعيد بعد المشرقين ودليـــل على ضعف عقلك وفراغ ذهنك فيا لك من سفيه ويا لك من جاهل اتريد منا صلحا ومؤاخاة ولم تدخل في الدين الحق وكتاب الله ناه عـــن ذلك . فان رمت الصلح فقل مخلصا من قلبك اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمدا رسول الله (صلعم) والا فانا نقاتلكم ونخرب دياركم ونتيم باذن الله اطفالكم ونغتنم اموالكم كما وعدنا الله ذلك في كتابه العزيز اذ انه لا قصد لنا في الدنيا وما هي لنا بدار وانما هي دار الكفار اهل الذل والصغار ودارنا هي الاخرة ذات الدرجات الفاخرة ولم تكن اقامتنا هذا لخدامة قبر ولا جمع رزق وانما هـــي لجهادك ، وجهاد امثالك في رضاء الله . فحينئذ انت والطليــان والافرنج ومن والاكم الله اكبر عليكم جميعا فما بيننا وبينكم الا السيف ما لم تؤمنوا بالله وحده فان امنت فذلك نريده والا فاتخذ لك دارا غير التي انت فيها فلا بد ان تنجلي عنها قريبا . واعلم انه لا حد لنا نقف عليه الا بيتك خاصة حيث جاهرت بكفرك وخالفـت مهدي الله خليفة الرسول وسيف الله المسلول فان كنـت ذا قوة وشجاعة كما تزعم فأقدم علينا ولا تحجم اذا ما اخرك لكل هذه المدة الا شدة الخوف واذا لم يكن ذلك فاثبت في محلك فلا بد لك مـن الهلاك عن يد حزب الله الغالب وجنده المفلح فأولى لك الانابة الى الله ومداركة عمرك قبل فواته فسلامتك في الاسلام وعطبك في ضده فابك ان كنت باكيا على نكسك فقد حان ذهابك ولن يتعظ شقـي مثلك الا بنفسه وها قد نصحت لك وانذرتك فاتب الى الله او بؤ بغضب من الله ورسوله فقد هيأ مقعدك من النار وبئس القرار وفي هذا كفاية والسلام على من اتبع الهدى،جمادى الاولى سنة ١٣٠٦هـ يناير سنة ١٨٨٨ م .